الفصل الثاني

أدبه

ـ مكانته الأدبية

أولاً : نثره

ـ ما تبقى من نثره

ثانياً : شعره

ـ كثرة شعره وضياع أغلبه

ـ توثيق شعره

ـ أغراض شعره المتبقي

ـ مستوى شعره

ـ القصيدة الرائية

الفصل الثاني

أدبـه

مكانته الأدبية :

حاز الجزيري بما أوتي من موهبة نثرية وشعرية ، وبديهة وقّادة ، إعجابَ الناس في حياته وبعدها ، وأشاد المترجمون له بأدبه وعلو مكانته ، ووصفوه بأرفع الأوصاف ، ولعل أول ثناء أسبغ عليه في حياته كان من الحاجب المنصور الحاكم ذي اللمحات النقدية في الخبر الذي أوردته المصادر في ترجمة صاعد البغدادي ، إذ قال له : « لله درّك يا أبا مروان **قسناك بأهل العراق ففضلتهم** فبمن تقاس بعد »[1] ، وكان هذا الثناء سلّماً للوصول إلى المراتب العالية .

وأول ثناء أضفي عليه بعد وفاته كان من ابن حيّان ، إذ ذكر أنه بوفاته « صرع منه ـ رحمه الله ـ يومئذ **فارس نثر ونظام** ، ومزّق بقتله وشي الكلام »[2] ، وذكر أيضاً أنه « لم يخلف مثله كتابة خطابة وبلاغة وشعراً وفهماً ومعرفة ، وبه **ختم بلغاء كتّاب الأندلس** ـ رحمه الله ـ »[3] .

ويثني الحميدي في تعريفه الموجز على الجزيري ثناء وافراً إذ يقول : « وزير من وزراء الدولة العامرية ، وكاتب من كتّابها ، عالم ، أديب ، شاعر ، كثير الشعر ، غزير المادة ، **معدود في أكابر البلغاء** ، ومن ذوي البديهة في ذلك »[4] ، ونقل الضبي عن الحميدي ترجمته كاملة[5] .

---

(١) الذخيرة ٤/ ١/ ٣٦، وانظر المغرب ١/ ٣٢٢، نفح الطيب ٣/ ٩٥ .
(٢) الذخيرة ٤/ ١/ ٥٢ .
(٣) الصلة ص٣٥٧، وانظر تاريخ الإسلام ص٣٠٣ .
(٤) جذوة المقتبس ص٢٨٠ .
(٥) بغية الملتمس ص٣٧٤ ـ ٣٧٥ .

ويصفه أبو محمد الرشاطي في اختصار اقتباس الأنوار بأنه « **له بلاغة وشعر** »[1] .

ويحبّر ابن خاقان في مطمحه مديحه تحبيراً ، فيقول : « **علم من أعلام الزمان** ، وعين من أعيان البيان ، باهر الفصاحة ، طاهر الجناب والساحة »[2] .

وينوّه به ابن بسّام في ذخيرته ، ومع أنه خارج شرط كتابه وتحديده الزمني إلا أنه أبى إلا أن يذكر شيئاً من شعره ونثره وخبر مقتله ، يقول : « وكان أبو مروان الجزيري أحد شعراء الأندلس **المجيدين وقته** ، وممن اجتمع له بهذا الإقليم نوعا البلاغة في المنثور والمنظوم ، وتقدُّم عصره منعني من ذكره ، وفي خبر مقتله طول ، لكن نلمع منه بلمعة بعد أن نقدّم من نوعي كلامه قطعة »[3] .

ويوجز ابن الأبّار في إعتاب الكتّاب في وصفه من دون انتقاص لقدره ، إذ يقول : « **وكان في الغاية من البيان والخطابة** »[4] .

وينقل ابن سعيد في مغربه عن كتاب الذخيرة لابن بسام وعن مصدر آخر لم يصل إلينا كاملاً هو المسهب للحجاري[5] فيقول : « ذكره صاحب الذخيرة والمسهب ، **وكلاهما عظّم محلّه** ، وذكرا أنه كان يشبّه بمحمد بن عبد الملك الزيات في البلاغة والعبقرية »[6] ، وينعته بنفسه في كتاب رايات المبرّزين بلفظ فريد هو « **الرئيس** »[7] .

---

(١) اختصار اقتباس الأنوار ص١٣٤ ، وانظر الأنساب ٢/ ٥٧ ، والإكمال ٢/ ٢١٣ .

(٢) مطمح الأنفس ص١٧٧ .

(٣) الذخيرة ٤/ ١/ ٤٦ .

(٤) إعتاب الكتّاب ص١٩٣ .

(٥) «الحجاري (٠٠٠ ـ ٥٨٤ هـ = ٠٠٠ ـ ١٠٨٨ م)
عبد الله بن إبراهيم الكندي الحجاري، أبو محمد: مؤرخ أندلسي، نسبته إلى وادي الحجارة (Guadalajara)، له «المسهب في أخبار أهل المغرب» و«الحديقة» في البديع». الأعلام ٤/ ٦٣ .

(٦) المغرب ١/ ٣٢١ .

(٧) رايات المبرّزين ص٢٣٠ .

أولاً ـ نثره :

في البداية نشير إلى أن الجزيري قد اشتهر بوصفه كاتباً أكثر من شهرته بوصفه شاعراً بل كان أكثر المترجمين له يصفونه بأنه « **الوزير الكاتب** »[1] ، **أو** « **الكاتب** »[2]فحسب ، بل إن ابن سعيد في راياته وضعه ضمن كتّاب المئة الرابعة ووصفه بوصف فريد كما ذكرنا آنفاً « الكتّاب : المئة الرابعة : **الرئيس الكاتب** »[3] ، ووصفه في المغرب بأنه « كاتب المنصور بن أبي عامر ثم ولده المظفر »[4] .

وكذلك وضعه في كتاب المقتطف في « الخميلة الثالثة المشتملة على « النثر الممتع » ، ووضع كتّاب الأندلس القدامى في الطبقة الثانية « المجتمع في أسلوب ترسيل القدماء من كتّاب الأندلس »[5] .

ويصفه صاحب البيان المغرب بأنه « **الكاتب البليغ** »[6] .

وقد ينعت بالشاعر أو أن له شعراً ، ولكن بعد التعريف به بأنه كاتب خلا مرة واحدة لابن بسام .

وقد أعجب الناس في عصره بنثره ، كما كان المنصور شديد الإعجاب بنثره والتقدير له ، ولا يستغني عنه ، وهذا مما حدا بالجزيري إلى الاغترار بنفسه ـ كما علمنا ـ ، كما أن الحاجب المنصور في آخر أيام حياته قد اقتصر

---

(١) البديع في وصف الربيع ص٨٠ ـ ١٠٢ ـ ١١٩ ـ ١٢٥ ـ ٣٤، مطمح الأنفس ص١٧٧ ، فهرسة ابن خير ص٤١٠ نفح الطيب ١/ ٥٨٦ .

(٢) الذخيرة ٤/ ١/ ٣٥، ٧٤، المغرب ١/ ٣٢١، المقتطف ص٨٥، الروض المعطار ص٣٩١، أعمال الأعلام ص٧١، نفح الطيب ٣/ ٩٥ ٤/ ٦٦ .

(٣) رايات المبرزين ص٢٣٠ .

(٤) المغرب ١/ ٣٢١ .

(٥) المقتطف ص٨٤ .

(٦) البيان المغرب ٣/ ٢٦ .

على أوصاف الجزيري وهو على فراش الموت من دون أوصاف سائر الأطباء[1] .

ويجدر بالذكر أنه تقلّد بعده هذا المنصب الكبير أبو حفص ابن بُرْد الأكبر[2] ، يقول ابن بسام « قلد أبو حفص هذا ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري »[3] .

وفي مجال النقد قدّمه ابن سعيد في راياته على سائر كتّاب المئة الرابعة ، واستهل به هذا الفصل[4] ، وفعل مثل هذا في مغربه فوضعه في مطلع كتاب « الحلة الحمراء في حلى الجزيرة الخضراء » في « السلك من كتاب أردية الشباب »[5] .

وقد أبدى بعض النقاد إعجابهم بنثره مراراً ، يقدّم أبو الوليد الحميري لرسالة الجزيري عن بنفسج العامرية فيصفها بأن « **جمالها باهر وكمالها ظاهر** »[6] ، ويعلّق على رسالته عن بهار العامرية ؛ « ولا نحتاج إلى ذكر أكثر من هذا المدح كما لا يحتاج إلى إطراء النظم والنثر بأكثر من أنهما **حلال في السحر** »[7] .

ويشير ابن بسام إلى ذلك في أثناء حديثه عن شعره فيقول : « ومن شعره

---

(١) الذخيرة ٤/ ١/ ٧٤.

(٢) ابن بُرْد (٠٠٠ ـ بعد ٤٤٠ هـ = ٠٠٠ ـ بعد ١٠٤٨ م)
أحمد بن محمد بن أحمد بن برد، أبو حفص: شاعر أندلسي، من بلغاء الكتّاب، من بيت فضل ورياسة، له رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما، قال الحميدي وهو أول من سبق في ذلك بالأندلس، وقال رأيته بالمرية بعد سنة ٤٤٠ وكان جده برد من الموالي» الأعلام ١/ ٢١٣.

(٣) الذخيرة ١/ ١/ ١٠٣.

(٤) رايات المبرزين ص٢٣٠.

(٥) المغرب ١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٦) البديع في وصف الربيع ص٨٠.

(٧) المصدر نفسه ص١٠٣.

ـ أيضاً ـ مما اندرج له في أثناء نثره الذي ملح فيه »[1] .

ومن المحدثين نجد د . إحسان عباس في فهرس كتاب التشهبيات يعرّف به فيقول : « من أبلغ كتّاب الأندلس في دولة المنصور بن أبي عامر »[2] ، ويقول في كتابه تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة « وفيها ظهر أكابر الكتّاب الناثرين ومنهم ١ـ ابن برد الأكبر ، ٢ـ عبد الملك بن إدريس الجزيري »[3] . ويقول كذلك : « وفي طليعة هذه الطبقة من الناثرين يقف ابن الجزيري وابن برد الأكبر وابن درّاج »[4] .

ويصفه الأستاذ عبد الله عنان بأنه « الكاتب البليغ »[5] .

أما أسلوبه النثري العام فيتسم بالسرعة والبديهة ، فقد كان الجزيري « من ذوي البديهة »[6] ، ولكن كما قال الشاعر ابن الرومي :

نار الرويّة نار جدّ منضجة ... وللبديهة نار ذات تلويح
وقد يفضّلها قوم لعاجلها ... لكنه عاجل يمضي مع الريح[7]

فقد كان الجزيري سيّال القلم مستعدّاً في أكثر الأوقات لكتابة الرسائل الديوانية التي يؤمر بإنشائها على خلاف ابن درّاج القسطلي ، لكن نتاج البديهة ليس بمستوى نتاج الروية والتنقيح والتثقيف ، فما لبثت أن تلاشت رسالة الجزيري في فتح مدينة « شنت ياقب » على كثرة نسخها في عصره ، وبقيت رسالة ابن درّاج مدة أطول ، ولكنها ـ أيضاً ـ أتت عليها عوادي الزمن ففقدت مع ما فقد من التراث الأندلسي ، حدّث الحميدي في جذوته عن ابن حزم أنه قال : « وأخبرني أن المنصور أبا عامر لما فتح شنت ياقب أو غيرها من القلاع

---

(١) الذخيرة ٤/ ١/ ٤٧ .
(٢) التشبيهات (الفهرس) ص٣١٧ .
(٣) تاريخ الأدب الأندلسي ص٣٢٩ .
(٤) المرجع نفسه ص٣٣١ .
(٥) دولة الإسلام في الأندلس ١/ ٢/ ٦١٧ .
(٦) جذوة المقتبس ص٢٨٠ .
(٧) ديوان ابن الرومي ٢/ ٥٦٧ .

الحصينة التي يقال إن أحداً لم يصل إليها قبله ، استُدعي أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج ، وأبو مروان عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري ، وأُمرا بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة ، وإلى سائر الأعمال ، فأما ابن الجزيري فقال سمعاً وطاعة ، وأما ابن درّاج فقال : لا يتم لي ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة ، وكان معروفاً بالتنقيح والتجويد والتؤدة ، فخرج الأمر إلى ابن الجزيري بالشروع في ذلك فجلس في ظل السرادق ولم يبرح حتى أكمل الكتب في ذلك ، وقيل لابن درّاج افعل ذلك على اختيارك فقد فسح لك فيه . ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح وقد وصف الغزاة من أولها إلى آخرها ، ومشاهد القتال وكيفية الحال بأحسن وصف وأبدع رصف[1] ، فاستحسنت ووقع الإعجاب بها ، ولم تزل منقولة متداولة إلى الآن ، وما بقي من نسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح على كثرتها عين ولا أثر »[2] .

يقول د . إحسان عباس : « والفرق بين ابن دراج والجزيري هو ما ينتجه التباعد بين الروية والسرعة ، فقد كان ابن درّاج مروّياً لا ينشىء إلا بعد الجهد والكد ، وكان الجزيري على عكس ذلك . . . ويستطيع القارىء أن يقارن بسهولة بين ما مر من أسلوب ابن دراج وبين قول الجزيري في كتاب كتبه عن المنصور يعاتب فيه جنده لنكوصهم عن المحاربة في بعض غزواته « . . . . » ، **وهذا الأسلوب في رأيي أليق بالمقام** ، ولكن التنوق في الكتابة غلب حتى على الرسائل الديوانية »[3] .

إذاً ، فالدكتور إحسان عباس يفضل نثر الجزيري البسيط العفوي على نثر ابن درّاج المعقد المتكلف ، ويشير إلى أن الذوق العام قد صار أميل إلى التكلف لذلك اشتهرت رسائل ابن دراج القسطلي وخَملت رسائل أبي مروان الجزيري .

---

(١) في الأصل وصف ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) جذوة المقتبس ص١١٢ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي ص٣٣١ ـ ٣٣٢» وانظر أدب الرسائل في الأندلس ص٩٧ ، ديوان ابن درّاج ص٥٥ .

وقد لا تكون البديهة حاضرة دائماً ، فليس الأديب آلة تنشىء رسالة فور الضغط على مفتاح التشغيل ، فكان لا بدّ من التحضير والتوقع للأحداث ، ولاسيما أنه مطالب في كل مناسبة وحدث جلل ، وقد كان الجزيري بذكائه وألمعيته يستنطق الأحداث ، ويعدّ لها ما يناسبها حتى إذا طلب منه كتابة رسالة فيها بديهة ، صنع ذلك بسرعة وجودة معاً ، ذكر لنا ذلك ابن عبد الغفور الكلاعي في بعض نصائحه للكتاب مستشهداً بالجزيري ، ولكنه ـ للأسف ـ لم يورد الرسالة أو شيئاً منها ، يقول : « ومما نشير به على الكاتب إذا علم أن حالة ستقع ، وأنه مكلف عنها أن يتقدم في العمل لها ، وإحكام ما يحتاج إليه فيها ، فإذا وقعت واحتيج إلى ما عنده أخرج ذلك ارتجالاً ، وأبرزه بديهة ، كما عرض لعبد الملك بن إدريس وقد خرج مع المنصور في طلب ابنه عبد الله ، وقد فرّ عنه إلى جيليقية ، واعتصم بطاغيتها ، فعلم أنه ظافر به ، وقدم إلى العمل في ذلك طول سفره ، حتى إذا دعي له كتب في ذلك كتاباً بليغاً تحت جناح الفسطاط ، وأرى الحاضرين أنه ارتجله ، ففاز ببعد الذكر ، وحصل على أبّهة الشهر »[1] .

ما تبقى من نثره :

ذكر المترجمون أن الجزيري كانت له « **رسائل وأشعار كثيرة مدونة** »[2] ، بيد أن نثره وشعره كليهما قد ضاع جلّهما ، ولم يبق له من نثر فني سوى **أربع قطع تتوزع بين الرسائل الديوانية والإخوانية والوصفية** ، والرسائل الديوانية هي « الرسائل والكتب التي تصدر عن ديوان الإمارة لأغراض عديدة وموضوعات متنوعة بتنوع المهمات التي يباشرها الأمير في إدارة شؤون إمارته أو ولايته على صعيد السياسة والإدارة والسلم والحرب وغيرها . . . وكان من هذه الأغراض والموضوعات : رسائل التولية والعزل ورسائل العهود والمواثيق، ورسائل المديح والمودة بين الأمراء أنفسهم ، ومخاطبة الخارجين

---

(١) إحكام صنعة الكلام ص٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

(٢) جذوة المقتبس ص٢٨٠ .

والمتمردين ، ورسائل التهاني والتعازي ، ورسائل الاستغاثة والشفاعة والعتب والاعتذار »[1] .

وقد حفظ لنا ابن الخطيب جزءاً من رسالة أنشأها الجزيري بأمر من الحاجب المنصور بعد انتهاء حرب صائفة سنة ٣٩٠ هـ ، يعاتب فيها جنده الذين نكصوا على أعقابهم في حربهم مع النصارى ، وأمر قوّاد الجيش بانتساخ الرسالة ليقرؤوها على الجند كافة ، ومما تبقى من الرسالة :

« منه فصل :

وكثيراً ما فرط من قولكم إنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون ، وتشتاقون ملاقاة الرجال الفحول ، فحين جاءكم شانجُه بالأمنية ، وقاتلكم بالشريطة ، أنكرتم ما عرفتم ، ونافرتم ما ألفتم ، حتى فررتم فرار اليعافير[2] من آساد الغيل ، وأجفلتم إجفال الرِّئال[3] عن المقتنصين ، ولولا رجال منكم رحضوا عنكم العار ، وحرروا رقابكم من الذل لبرئتُ من جماعتكم ، وشملت بالموجِدَة[4] كافّتكم ، وخرجت للإمام والأمة عن عهدتكم ، ونصحت المسلمين في الاستبدال بكم ، ولم أعدم من الله تعالى عاجل نصر ، وحسن عقبى ، فلا بدّ أن ينصر دينه بمن شاء »[5] .

أما الرسائل الإخوانية فهي : « الرسائل التي يتبادلها الكتاب مع إخوانهم وأصدقائهم وخلانهم ، ومنها أيضاً الرسائل التي يبعث بها الكاتب إلى السلطان أو إلى أحد من حاشيته يخطب مودته ويتطلع فيها إلى القرب منه أو يلتمس قضاء حاجته » .

---

(١) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ص٢٠٧ وانظر النثر الفني في الأندلس ص٨٩، والنثر الأدبي الأندلسي ١/ ٢١٣ .

(٢) اليعافير : الظباء بلون التراب .

(٣) الرئال : أولاد النعام .

(٤) الموجدة : الغضب .

(٥) أعمال الأعلام ص٧٢ .

ومن الصنف الثاني وصلت إلينا رسالة مهمة للجزيري قالها في سجنه ، حفظها لنا ابن سعيد ، يقول : « عبد الملك بن إدريس الجزيري : كاتب المنصور بن أبي عامر : كتب عن نفسه إلى مخدومه وقد سخط عليه :

وبعد حمد الله المحمود على السرّاء والضرّاء ، المسلم لحكمه وقضائه في السخط والرضا ، فقد علم سيّدي وربّ النعمة عليّ أن النفوس خيل حلبة تتسابق إلى الغايات التي قدّرت لها ، والسعيد سعيد في بطن أمه ، والشقي شقي في بطن أمه ، وقد كان من قدر الله سبحانه إنعامه عليّ برضاك مرة جررت بها ذيول العز في بساط الإدلال ، إلى أن طالت فعثرت فيها بالاغترار وسابق الأقدار عثرة لا تستقال إلا بالمعتاد من كرمك ، وإغضائك عن هفوات صنائعك ، والحاجب المنصور ـ أدام الله حلو نصره ـ يعلم أن ريّض الخيل بعد الأدب أمتع ، والمهيض[1] بعد الجبر أصلح »[2] .

أما الرسائل الوصفية فهي « الرسائل التي كتبت للتعبير عن موضوعات عديدة كالطبيعة وما فيها من أزهار وأشجار وثمار وأطيار وأنهار وليل ونهار والإنسان والجماد وغير هذا »[3] .

ومما يحسن التنبيه عليه هو أن هذه الرسائل قد تكون خاصة بغرض الوصف وقفاً عليه ، وقد تكون موجهة إلى غرض آخر هو المديح غالباً ، ومن النوع الثاني ما تبقى من رسائل الجزيري الوصفية ، فقد وصل إلينا رسالتان وصفيتان موصولتان بشعر على لسان الأزاهر مؤرختان بسنة ٣٨٣ هـ أولاهما في المناظرة على لسان بنفسج العامرية جعلها د . حازم خضر في مقدمة القطع الوصفية في القرن الرابع الهجري يقول : « ويبدو أسلوب القطع النثرية الواردة في الوصف أكثر عناية بالأسلوب وأشد تركيزاً على سمات البيان والبلاغة

---

(١) المهيض: المكسور.

(٢) المقتطف ص٨٥ ـ ٨٦.

(٣) النثر الأندلسي ص٢٤٧ وانظر النثر الفني في الأندلس ص١٢٤، والنثر الأدبي الأندلسي ١/ ٤٠١.

وخصائص الأسلوب الأدبي الدقيق المعبّر ، ويشارك في صوغ نماذج هذا النوع عدد من الأدباء والشعراء المشهورين في هذه الفترة وفي مقدمتهم ابن درّاج والجزيري ، وفي مقدمة النماذج الواردة قطعة وصفية أجراها الجزيري على لسان بنفسج العامرية وتفهم من خلال سطورها أنها موجهة إلى المنصور بن أبي عامر »[1] .

ويعدّها الأستاذ علي بن محمد أول رسالة للنثر البياني يقدم لها بقوله إن « الرسالة التي يظهر فيها لأول مرة هذا النثر البياني جليّاً واضحاً لا تخطئه العين ولا يختلف عليه اثنان إنما هي رسالة أبي مروان الجزيري »[2] .

« وكتب الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري إلى المنصور بن أبي عامر ـ رحمه الله ـ عن بنفسج العامرية يوم الأضحى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمئة رسالة موصولة بشعر جمالها باهر ، وكمالها ظاهر ، احتج له فيهما احتجاجاً طريفاً ، وعضده به عضداً ظريفاً ، وآثره على النرجس والبهار بإشارات جليلة المقدار . والرسالة :

منح الله مولاي صدق النظر ، وعرّفهُ جليّة الخبر ، وأطال مدته ، ووصل سلامته وعزته ، إذا ترافعت[3] الخصوم ـ أيّد الله المنصور مولاي ـ في مذاهبها ، وتنافرت في مفاخرها ، فإليك مفزعها ، وأنت المقنَع في فصل القضية بينها ، لاستيلائك على المفاخر بأسرها ، وعلمك بسرّها وجهرها ، وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما والفخر بمشابههما[4] كل مذهب ، وما منهما إلا ذو فضيلة ، غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا ، وأعرف من الغمام الذي يسقينا ، فإن كانا قد تشبها في شعريهما المرتفعين إلى مولاي ـ أبقاه الله وأيده ـ ببعض ما في الأرض من جواهر الأرض

---

(١) المرجع نفسه ص٨٣.
(٢) النثر الأدبي الأندلسي ١/ ١٩٥ .
(٣) في طبعة د. كردي لكتاب البديع ص٨٢: تدافعت.
(٤) في طبعة د. عسيلان لكتاب البديع: مشابهما والمثبت من طبعة د. كردي.

ومصابيح السماء ، وهي من الموات الصامت ، فإني أتشبه بأحسن ما زيّن الله به الإنسان ، وهو الحيوان الناطق من أدوات خلقه ، وأنفس ما رُكّب فيه من موادّ حياته مع أني أعطر منهما عطراً ، وأحمد خُبراً ، وأكرم إمتاعاً ، شاهداً وغائباً ، ويانعاً وذابلاً ، وكلاهما لا يُمتعك إلا ريث ما يبدو للعيون ، ويسلم من الذبول ، ثم تستكره الأنوف شمّه ، وتستدفع الأكف ضمّه ، فأين هذه الحال من الاستمتاع بي رطباً ، وادّخاري في خزائن الملوك جافّاً ، وتفضيلي على ألسنة الحكماء ، وتصريفي في منافع الأعضاء ، وإن فخرا باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساقي فلا غرو أن الوشي ضعيف ، والهوى لطيف ، والمسك خفيف .

وليس المجد يدرك بالصراع

كما قال حكيم الشعراء ، وقد أودعت ـ أيّد الله المنصور ـ قوافي الشعر من وصف مشابهي ما أودعاه من وصف مشابههما ، وحضرت بنفسي لئلا أغيب من حضرتهما . فقديماً فضّلوا الحاضر وإن كان مفضولاً . ولهذا قالوا : « ألذ الطعام ما حضر لوقته » ، و« أشعر الناس من أنت في شعره » ولمولاي ـ أيّده الله ـ أن يعدل باختياره الصحيح ، ويفصل بحكمه العادل ، إن شاء الله »[1] .

وقد وردت هذه الرسالة بأسلوب ضمير الغائب بدلاً من ضمير المخاطب في كتاب الذخيرة مع اختلافات غير يسيرة لذلك سنوردها بنصّها، ونقلها عنه المقري مع اختلاف قليل سنشير إليه ، يقول ابن بسام : « ومن أخرى عن بنفسج العامرية :

إذا تدافعت الخصوم ـ أيّد الله مولانا المنصور ـ في مذاهبها ، وتنافرت في مفاخرها ، فإليه مفزعها ، وهو المقنَع في فصل القضية بينها ، لاستيلائه على المفاخر بأسرها ، وعلمه بسرها وجهرها ، وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما ، والفخر بمشابههما كل مذهب ، وما منهما إلا ذو فضيلة ، غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا ، وأعذب من الغمام الذي

---

(١) البديع في وصف الربيع ص٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ .

يسقينا ، فإن كانا قد تشبّها في شعرهما ببعض ما في العالم من جواهر الأرض ومصابيح السماء ، وهي من الموات الصامت ، فإني أتشبه بأحسن ما زين الله به الإنسان وهو الحيوان الناطق ، مع أني أعطر منها عطراً ، وأحمد خبراً ، وأكرم إمتاعاً ، شاهداً وغائباً ، ويانعاً وذابلاً ، وكلاهما لا يُمتع إلا ريثما يمنع[1] ، ثم إذا ذبل تستكره الأنوف[2] شمّه ، وتستدفع الأكف ضمّه ، وأنا أمتّع رطباً ويابساً ، وتدخرني الملوك في خزائنها ، وسائر الأطباء ، وأصرف في منافع الأعضاء . فإن فخرا باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساقي ، فلا غرو إن الوشي ضعيف ، والهواء[3] لطيف ، والمسك خفيف ،

وليس المجد يدرك بالصراع

وقد أودعت ـ أيّد الله مولانا ـ قوافي الشعر من وصف مشابهي ما أودعاه ، وحضرت بنفسي لئلا أغيب عن حضرتهما ، فقديماً فُضّل الحاضر وإن كان مفضولاً ، ولهذا[4] قالوا : ألذ الطعام ما حضر لوقته ، وأشعر الناس من أنت في شعره ، فلمولانا أتمّ الفضل[5] في أن يفصل بحكمه العدل »[6] .

ويشيد الأستاذ الباحث علي بن محمد في تعقيبه على هذه الرسالة بنثر الجزيري أيّما إشادة ، وينوّه بسبقه إلى ولوج باب النثر الفني أي إنه رائد النثر الفني في الأندلس ، يقول : « مما لا شك فيه أن النثر قد انتقل إلى مرحلة جديدة من تطوره مع الجزيري ورسالته هذه ، . . . والحق أن الجزيري قد ملّح بشيئين :

الأول : هذه الطريقة في الحديث عن الزهور بالنثر وهو حديث لم تتعوّد آذان الأندلسيين سماعه إلا ضمن بحور الشعر وقوافيه . الثاني : أنه نقل الحوار

---

(١) في النفح : يينع .
(٢) في النفح : النفوس .
(٣) في النفح : الهوى .
(٤) في النفح : ولذا .
(٥) في النفح : الحكم .
(٦) الذخيرة ٤/ ١/ ٤٨ ـ ٤٩ ، النفح ١/ ٥٣١ .

الذي كان معروفاً بين البشر إلى النباتات ، فأجراه بين الزهور في مفاخرة حماسية ينتصر فيها كل نوع لأخص خصائصه ، ويثني فيها على نفسه بأحسن أوصافه ، وسيدخل النثر في القرن الخامس هذين البابين ويكون له فيهما شأن كبير .

هذه إذن خطوة كبيرة حاسمة خطاها النثر ليس في تجديد قوالبه وأنماطه كما كانت الحال طَوال القرون الثلاثة التي استعرضناها أهم ملامح تطوره فيها ، ولكن في تغيير طبيعته بالذات ، ولعل القرن الرابع لم يشهد في ميدان الأدب تحولاً يشبه هذا أو يضاهيه »[1] .

ويعلّق د . حازم خضر على هذه المقطوعة النثرية مبيناً خصائصها ومزاياها : « ولعل ألفاظ هذه القطعة النثرية بما تمتاز به من سمات السهولة واليسر وموافقتها للطبع والذوق ، وتلاؤم عبارتها وانسجام ألفاظها ومتانتها مما يدل على عناية أدبية وقدرة فنية بلاغية تترجم الأشياء والأوصاف وتجري الترجمة بطريق الحوار »[2] .

والرسالة الثانية في المديح على لسان بهار العامرية ، وقد تفرد بإيرادها صاحب البديع في وصف الربيع يقول : « وكتب الوزير الكاتب أبو مروان بن الجزيري إلى المنصور أبي عامر بن أبي عامر وهو بأَرْمِلاّط عن بهار العامريّة في كانون الأول الكائن في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمئة :

بسم الله الرحمن الرحيم ـ أطال الله بقاء المنصور مولاي ، وأدام عزّه ، وهنّأه سروره ، وسوّغه نعمه عنده ـ إني ـ أيّد الله المنصور مولاي ـ لما استقلّتْ بزهرتها مائلةُ[3] قضبي ، وتنبّهت من سنتها نائمة جفوني ، ونمّتْ بعطرها ساطعة روائحي ، وافترشت ديباج حديقة بكّر وسميُّها ، وتتابع وليُّها ، فالتقى

---

(١) النثر الأدبي الأندلسي ١/ ١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٢) النثر الأندلسي ص٨٣ .

(٣) في طبعة د. كردي لكتاب البديع ص١٠٤ : زهرتُها مائلةَ.

ثرياها و﴿أخذت الأرض زخرفها وازّينت﴾[1] وطاب صعيدها حتى كأنّ[2] ترابها فتيت المسك ، أو سحيق الكافور عنّ لي زهو بحسني وارتياح لحالي ، وإعجاب بمكاني ، وشاركت ذلك دواعي هزة الشوق إليك ، وشواجي لوعة البعد عنك حين فارقت محلّي ، وآثرت بالزيارة غيري ، فحرّكن مني ساكناً ، وبعثن لي على مناجاة الشعر خاطراً ، فأجابني منه ما ضمنته غرائب وصفي وأهديته إلى مولاي مع محاسن شخصي الذي هو غرس همته ، وابن نعمته ، لعل فعلي أن يوافق منه قبولاً ، ويقسم لي من حسن تذكره نصيباً بواسع تفضله وسابغ تطوله ، وكريم تحاوره »[3] .

ثانياً : شعره

تبيّن ـ مما سلف ـ أن الجزيري عرف بالكتابة واشتهر بها أكثر من شهرته بالشعر ، وأنه كثيراً ما كان المترجمون يقتصرون على وصفه بالكاتب أو تكون صفة الشعر تالية لصفة الكتابة ، خلا ما ذكر ابن بسام الذي أشاد به شعراً ونثراً ، وبيّن أنه لم يكن مقصراً في مضمار الشعر بل كان مجيداً فيه ، فقد سبق أن سمعنا قوله عنه بأنه « **أحد شعراء الأندلس المجيدين وقته** ، وممن اجتمع له بهذا الإقليم نوعا البلاغة في المنثور والمنظوم »[4] .

كما أطلق عليه ابن حيان « فارس نثر **ونظام** »[5] **وأنه « لم يخلف مثله كتابة وخطابة وبلاغة وشعراً** وفهماً ومعرفة »[6] .

ويعدّه المستشرق الإسباني الكبير بالنثيا «**في طليعة شعراء هذا العصر**»[7] .

---

(١) سورة يونس: ٢٤ .
(٢) في طبعة د. عسيلان: كان، ورجحنا رواية طبعة د. كردي.
(٣) البديع في وصف الربيع ص١٠٢ .
(٤) الذخيرة ٤/ ١/ ٤٦ .
(٥) المصدر نفسه ٤/ ١/ ٥٢ .
(٦) الصلة ص٣٥٧ .
(٧) تاريخ الفكر الأندلسي ص٦١ .

ويصفه الأستاذ علي بن محمد بأنه « كان كاتباً وشاعراً مشهوراً »[١] .

وكما أعجب النقاد بنثره فقد أعجبوا بشعره ، فقدموا له أو علّقوا عليه بثناء رفيع ، ولاسيما أبي الوليد الحميري فكان كثيراً ما يبدي إعجابه فيما انتقى له ، كقوله : « ومن السري السني قول الوزير الكاتب أبي مروان الجزيري رحمه الله »[٢] ، وقوله « وللوزير الكاتب أبي مروان بن الجزيري فيه وصف مفضل له مستحسن منه »[٣] ، وقوله : « وكتب ـ أيضاً ـ أبو مروان إلى الوزير أبي مروان عبد الملك بن شهيد في أخريات أيام الورد بأبيات أنيقة الصفات »[٤] ، وقوله : « وكتب الوزير الكاتب أبو مروان بن الجزيري إلى المنصور أبي عامر ـ رحمهما الله ـ عن نرجس العامرية في أول يوم من كانون الآخر سنة ثلاث وثمانين وثلاثمئة ـ فأبدع واخترع »[٥] ، وقوله : « ولا نحتاج إلى ذكر أكثر من هذا من المدح كما لا يحتاج إلى إطراء النظم والنثر بأكثر من أنهما حلال من السحر »[٦] .

ويقدّم ابن خاقان لأبياته الرائية في وصف معقله بقوله : « فمن بديع ما قاله : قوله يصف المعقل الذي فيه اعتقل »[٧] .

وقد انصبّ جانب من هذا الإعجاب على بديهته الحاضرة التي جعلت الحاجب المنصور يفضله على أهل العراق ويوليه الشرطة[٨] ، وكانت البديهة إحدى الصفات المهمة التي أطلقت عليه ، يقول الحميدي « **ومن ذوي البديهة** في ذلك »[٩] .

---

(١) النثر الأدبي الأندلسي ١/ ٨٧ .
(٢) البديع في وصف الربيع ص١٢٥ .
(٣) المصدر نفسه ص١٣٤ .
(٤) المصدر نفسه ص١٢٥ .
(٥) المصدر نفسه ص١١٩ .
(٦) المصدر نفسه ص١٠٣ .
(٧) مطمح الأنفس ص١٧٩ .
(٨) انظر الذخيرة ٤/ ١/ ٣٦ والمغرب ١/ ٣٢٢، ونفح الطيب ٣/ ٩٥ .
(٩) جذوة المقتبس ص٢٨٠ .

ويقول المستشرق د . سزكين « وقد نوّهوا مراراً بمقدرته على ارتجال الشعر وكذلك بجودة نثره الذي ضاع أغلبه »[1] .

وقد كانت أخباره تشير إلى بديهته بطريقة غير مباشرة كما حدث له مع صاعد إذ ردّ عليه بسرعة « فقال له يا أبا العلاء هلاّ قلت »[2] .

وقد يُنصّ على بداهته مباشرة ، كخبر هَطْل المطر في يوم صنيع الحاجب المنصور لابنه عبد الرحمن إذ يقول صاحب الذخيرة « ثم أتى المطر الوابل فاستبشر الناس وسرّ ابن أبي عامر ، فقال الجزيري **بديهة** »[3] .

وكذلك في الأبيات البائية التي أنشأها « بين يدي المنصور أبي عامر في ليلة يبدو فيها القمر تارة وتخفيه السحاب تارة ، فقال **بديهة** »[4] .

كثرة شعره وضياع أغلبه :

في الترجمة المكثفة الوجيزة التي ترجم له فيها الحميدي ذكر كثرة شعره مرتين وألمح إلى ذلك مرة ثالثة إذ قال : « عالم أديب شاعر **كثير الشعر** غزير المادة . . . وله **رسائل وأشعار كثيرة** مدونة ، **ومن مستحسن مطولاته** قصيدة له في الآداب والسنّة »[5] ، فهو ينصّ على أنه كثير الشعر ، وأن أشعاره كثيرة ، وزيادة على ذلك فقد كانت مدونة ، كما أن انتقاءه أبياتاً من إحدى مطولاته يعني أن له ما يزيد على قصيدة مطولة غير أن جميعها قد فقد خلا الرائية التي فقدت أيضاً ردحاً من الزمن ثم اكتشفت نسخة فريدة لها منذ عشرة أعوام .

وثمة أيضاً بعض الأخبار تشير إلى أشعار لا نعرف عنها أيّ شيء ، فابن بسّام يقول : « وعتب عليه المنصور وسجنه في مطبق الزاهرة واستعطفه برسائل

---

(١) تاريخ التراث العربي ٥/ ٧٢ .
(٢) الذخيرة ٤/ ١/ ٣٥ وانظر المغرب ١/ ٣٢٢، ونفح الطيب ٣/ ٩٥ .
(٣) الذخيرة ٤/ ١/ ٤٦، وانظر نفح الطيب ١/ ٥٣١ .
(٤) جذوة المقتبس ص٢٨١، وانظر المطمح ص١٧٩ ـ ١٨٠، المغرب ١/ ٣٢٢، نفح الطيب ١/ ٥٨٦، ٣/ ٢٦٠، ٤/ ٦٧ .
(٥) جذوة المقتبس ص٢٨٠ .

وأشعار عدّة »[1] ، وذكر ذلك أيضاً ابن سعيد : « ويقال : إن المنصور سجنه في مطبق الزاهرة مدة فاستعطفه من الرسائل والأشعار بما أثمر تسريحه »[2] ، غير أنه لم يصل إلينا أية قصيدة قالها في سجنه في مطبق الزاهرة .

وثمة كذلك بعض الدلائل على أن المترجمين له ينتقون ما يطيب لهم أو يوردون ما تيسر لديهم من شعره ، فقد أورد ابن بسام ثلاثة أبيات من المقطوعة الميمية في جواب الحاجب المصحفي ويذكر بعد البيتين الأولين لفظة « **ومنها** »[3] ، وترد هذه الأبيات في كتاب الحلة السيراء[4] أربعة أبيات بيد أن البيت الثاني الذي أورده ابن بسام لم يرد في اختيار ابن الأبّار ، وبذلك تغدو المقطوعة خمسة أبيات ، وقد تكون أكثر من ذلك . وقد أشار المقّري إلى ذلك في قوله : « وقد ذكر بعضهم في هذه الأبيات زيادة حسبما ذكرناه في غير هذا المحل »[5] .

وكذلك الأمر في المقطوعة القافية التي اختار منها ابن بسام ثلاثة عشر بيتاً فقد ذكر بعد البيت الثالث « **ومنها** »[6] وأوردها المقري باختلاف الترتيب وقال بعد البيت العاشر « **ومن هذه القصيدة** »[7] وتدل الأبيات على انقطاع في الشعر . وللأسف لم ترد هذه الأبيات في أي مصدر آخر ، وبذلك ضاع شطر من هذه القصيدة مع ما ضاع من شعر هذا الشاعر الذي لم يبق من شعره سوى **بضعة وثلاثمئة بيت** .

توثيق شعره :

ثمة مقطوعتان اثنتان يحوم حول نسبتهما شك يسير ، يتجاذب الأولى

---

(١) الذخيرة ٤/ ١/ ٤٧ .
(٢) إعتاب الكتّاب ص١٩٦ .
(٣) الذخيرة ٤/ ١/ ٦٩ .
(٤) الحلة السيراء ١/ ٢٦٧ .
(٥) نفح الطيب ١/ ٦٠١ .
(٦) الذخيرة ٤/ ١/ ٤٦ .
(٧) نفح الطيب ١/ ٥٣٠ .

الجزيري والحاجب المنصور ، وهي المقطوعة الميمية[1] التي رد فيها على مقطوعة الحاجب المصحفي الميمية[2] أيضاً ، وقد وردت لدى أربعة من أصحاب التراجم الأندلسيين والمغاربة ، أقدمهم ابن بسّام ، وهو ينصّ بوضوح على كونها للجزيري نقلاً عن ابن حيان فيقول عن الحاجب المنصور : « فأجابه بهذه الأبيات وهي لعبد الملك الجزيري :

الآن يـا جـاهـلاً زلّـت بـك القـدم تبغي التكرم لما فاتك الكرم »[3]

بيد أن ابن الأبّار في الحلة السيراء قد زرع فسيلة شك صغيرة في تعرضه لهذه الأبيات ، فبعد أن قدّم للأبيات بقوله « وأما ابن أبي عامر فأمر عبد الملك بن إدريس أن يجاوبه عن هذه الأبيات » فإنه يعلّق على الأبيات بقوله : « ويقال إن الأبيات لابن أبي عامر »[4] .

وقد وردت الأبيات في البيان المغرب من دون الترجيح بينهما ، ومن دون الإشارة إلى صاحب الأبيات ، يذكر المراكشي ردّ فعل المنصور على أبيات الحاجب المصحفي : « فما زاده ذلك إلا حنقاً وحقداً ولا أفادته الأبيات إلا تضرماً ووقداً ، فراجعه بما أيأسه ، وأراه مرمسه ، وأطبق عليه محبسه ، وضيّق تروّحه من المحنة وتنفّسه »[5] .

ورابع من وقف عند هذه الأبيات هو المقّري في نفح الطيب ، وفيه ينقل عن كتاب مجهول المؤلف هو « روضة الأزهار وبهجة النفوس ونزهة الأبصار » « فأجابه المنصور بأبيات لعبد الملك الجزيري » ثم يعلّق على ذلك بقوله : « وقد ذكر بعضهم في هذه الأبيات زيادة حسبما ذكرناه في غير هذا المحل ، فإن هذه الأبيات للمنصور ، وهذا المؤرخ مصرح بأنها لعبد الملك الجزيري ،

---

(١) انظر الديوان ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(٢) ومن المصادفة أيضاً أن أبيات الحاجب المصحفي يدور حول نسبتها إليه شك، وسنفصّل ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ في ديوان الحاجب المصحفي .

(٣) الذخيرة ٤/ ١/ ٦٩ .

(٤) الحلة السيراء ١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

(٥) البيان المغرب ٢/ ٢٨٦ ونقل عنه صاحب نفح الطيب ١/ ٤٠٨ .

وقد يقال : لا منافاة بينهما ، فإن المنصور أجاب بالأبيات ، وهل هو قائلها أم لا ، الأمر أعم ، فبيّن هنا ، والله أعلم »[1] .

إذاً فالمقرّي يميل إلى أن تكون الأبيات للجزيري عملها بطلب من الحاجب المنصور الذي ردّ بها على أبيات المصحفي ، ومن المعروف أن الجزيري لسان المنصور الفصيح ، وقد ذكرنا في أثناء البحث شواهد مقاربة يطلب فيها الحاجب المنصور منه أن ينشىء له رسائل على لسانه بصيغة المتكلم ، فليس عجيباً أن تكون هذه الأبيات من هذا القبيل ، ومما يقوّي نسبتها إليه أن أقدم رواتها نقلها عن ابن حيّان وهو شيخ مؤرخي الأندلس وأقرب المترجمين للجزيري وفاة ، وهو يؤكد نسبتها إلى الجزيري بقوله : « فأجابه بهذه الأبيات وهي لعبد الملك الجزيري » .

والمقطوعة الثانية التي يدور حولها شك أيضاً هي ترجمة لفحوى القصيدة الرائية وضعت في صفحة العنوان لتفصح عن معاني القصيدة ومحتوياتها ففي صفحة عنوان المخطوطة التي كتبها كلها ابن الحصين بخطّه عن الحميدي ، ما هو نصه : « جزء فيه قصيدة أبي مروان بن الجزيري رحمه الله في الآداب والسنّة ، كتب بها إلى بنيه ، **وترجمها بهذين البيتين** :

كتاب قصي الدار منقطع الشمل ... يحن إلى أوطانه وإلى الأهل
تضمّن آداب الديانة كلها ... ودلّ على سبل الهداية والفضل»[2]

فهذا يشي بأن الجزيري هو صاحب البيتين ويرجّحه ولكنه لا يقطع بذلك ولا يرقى إلى مرتبة اليقين ، بيد أنه كتب فوق الأبيات بخط مخالف لرسم المخطوطة « لإسماعيل بن عبد الله ابن الأنماطي[3] رفق الله به » مما قد يوهم

---

(١) نفح الطيب ١/ ٦٠١، ٦٠٢.

(٢) البيتان في الديوان ص ١٧٣ .

(٣) ابن الأنماطي (٥٧٠ ـ ٦١٩ هـ = ١١٧٤ ـ ١٢٢٢ م)
إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن ابن الأنماطي المصري، تقي الدين، أبو الطاهر، حافظ مجوّد ثقة، مفيد الشام، واسع الرواية وعنده فقه وأدب ومعرفة بالشعر وأخبار الناس، رحل إلى الشام والعراق وسمع جماعة كبيرة من العلماء، وكتب الكثير وحصّل=

بأنه صاحب البيتين ، غير أن هذا الوهم يزول سريعاً لأن وفاته كانت سنة ٦٣١ هـ ، وتاريخ كتابة هذه النسخة اليتيمة هو سنة ٤٧٩ هـ ففي نهاية القصيدة الرائية إجازة بخط الحافظ الحميدي (ت ٤٨٨ هـ) لابن الحصين مؤرخة سنة ٤٧٩ هـ للقصيدة المطولة والبيتين معاً : « سمع جميع هذه القصيدة وترجمتها بقراءتي من كتابي . . . » .

من هذا تنفى نسبة البيتين لابن الأنماطي نفياً قاطعاً ، ولعل اسمه ذكر في سماع القصيدة أو تملك مخطوطتها وترجّح نسبتها إلى أبي مروان الجزيري .

وثمة بيت تمثل به محمد بن عبد الوهاب الغساني (ت ١١١٩هـ) وذيّله ببيتين ، في رحلته التي سماها : « رحلة الوزير في افتكاك الأسير » ، وتفرد بإيراده ، ولم أورده هنا لمجرد تفرده بإيراده ؛ فثمة عدد من المقطوعات لم أجدها إلا في مصدر واحد بيد أن نسبتها إليه أكيدة ، ولكنْ لأنّ الغساني يقتصر على ذكر « الجزيري » فحسب من دون سائر اسمه يقول : « وقد أنشدت حين أبصرت هذه المدينة وجميل منظرها ، متمثلاً ببيت من الجزيري ، وضمّنته بيتين آخرين :

آليت إذ نظرت عيني محاسنها ... أن لا نظير لها في مطلق الصور

وهذان بيتا التضمين تدليلاً :

فالله ينقذها حتى يدان بها ... دين المهيمن محروساً من الكدر
بكف محتسب الأجر منتدب ... لله منتسب لأفضل البشر »[1]

وثمة بيتان مشهوران له ، قالهما بعدما عفا عنه الحاجب المنصور وأطلقه من سجنه ، فأعاداه إلى ما كان عليه ، وسرّحا ما حبس من ماله ، أوردهما له

= وخرّج ، وله مجاميع مفيدة ومات في السكتة .
سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٧٣ ـ ١٧٤ ، تاريخ الإسلام ص٣٩٩ ـ ٤٠٠ ، العبر ٥/ ٨٤ ، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤ ، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٢٥ ، شذرات الذهب ٥/ ٨٤ .

(١) رحلة الوزير ص١٦ .

كل من مؤلفي الذخيرة والمغرب ورايات المبرزين وإعتاب الكتّاب ونفح الطيب[1] ، إلا أن الأخير كان قد أوردهما من قبل غير منسوبين في قصة يبدو فيها النحل والتلفيق عن كتاب مجهول المؤلف اسمه « الأزهار المنثورة في الأخبار المأثورة » ، ينقل من أزهاره طاقة فيقول : « في الزهرة الرابعة والأربعين ما نصُّه : كان بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فتى من أهل الأدب ، قد رقّت حاله في الطلب ، فتعلّق بكتاب العمل ، واختلف إلى الخزانة مدة حتى قُلّد بعض الأعمال ، فاستهلك كثيراً من المال ، فلما ضم إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف دينار ، فرفع خبره إلى المنصور ، فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه ولزم الإقرار بما برز عليه قال له : يا فاسق ، ما الذي جرّأك على مال السلطان تنتهبه؟ . فقال : قضاء غلب الرأي ، وفقر أفسد الأمانة ، فقال المنصور : والله لأجعلنّك نكالاً لغيرك ، ليُحْضر كبل وحدّاد ، فأُحضرا ، فكبّل الفتى ، وقال : احملوه إلى السجن وأمر الضابط بامتحانه والشدّة عليه ، فلما قام أنشأ يقول :

أوّاهُ أوّاهُ وكـــــم ذا أرى أكثـــر مـــن تـــذكـــار أوّاهِ
مـــا لامـــرىء حـــول ولا قـــوة الحـــــول والقـــــوة للهِ

فقال المنصور : ردّوه ، فلما رُدّ ، قال : أتمثلت أم قلت ، قال : بل قلت ، فقال : حُلّوا عنه كبله ، فلما حُلّ عنه أنشأ يقول :

أمـــا تـــرى عفـــو أبـــي عـــامـــر لا بـــــدّ أن تتبعـــــه منّـــــه
كـــذلـــك الله إذا مـــا عفـــا عـــن عبـــده أدخلـــه الجنّـــه!

فأمر بإطلاقه ، وسوّغه ذلك المال ، وأبرأه من التبعة فيه »[2] .

وثمة مقطوعة وصفية جميلة في البهار (النرجس) ثابتة النسبة إلى الجزيري ، وهم الشريشي شارح مقامات الحريري في نسبتها إلى ممدوحه

---

(١) الذخيرة ٤/١/٤٧، المغرب ١/٣٢١، رايات المبرزين ص٢٣٠، إعتاب الكتّاب ص١٩٦، نفح الطيب ٤/٦٦.

(٢) نفح الطيب ١/٤١٨ ـ ٤١٩.

الحاجب المنصور يقول : « وهذه الصفة التي أثبتها أهل المشرق للنرجس هي التي يصف بها أهل المغرب البهار ، قال ابن أبي عامر في جارية اسمها بهار :

حـدق الحسـان تقـرّ لـي وتغـار وتظل في صفة البهار تحار . . .

بيّن أن البهار عندنا هو الذي تسميه أهل المشرق نرجساً »[1] .

ففي المقطوعة نفسها التي اقتصر الشريشي على خمسة أبيات منها دليل واضح على نسبتها إلى الجزيري ، فالبهار ـ كما أشرنا ـ هو اسم لإحدى بنات المنصور ، والأبيات مخاطبة « على ألسنة أسماء كرائمه بزهور رياضه » ، كما قال ابن بسام[2] وفي المقطوعة ذاتها يذكر اسم ممدوحه محمد بن أبي عامر في قوله على لسان البهار :

وأقـلّ جـود العـامـري محمّـد ألف حكت حدقي وتلك نضار[3]

وزيادة على ذلك فقد نسبها إليه أبو الوليد الحميري ، وابن بسّام الشنتريني ، وشهاب الدين المقّري[4] .

كما تجدر الإشارة إلى بيتي الجزيري :

أهـدى إليـك تحيـة مـن عنـده زمـن الـربيـع الطلـق بـاكـر ورده
يحكي الحبيب سرى لوعد محبه فـي طيـب نفحتـه وحمـرة خـدّه

فقد وردا له في كتاب البديع في وصف الربيع للحميري[5] وفي كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني الطبيب غير أنهما كانا في الطبعة الأولى والثانية من كتاب التشبيهات منسوبَيْن إلى عبيد الله بن إدريس[6]

---

(١) شرح مقامات الحريري ١/ ١٠٦ .
(٢) الذخيرة ٤/ ١/ ٤٧ .
(٣) الديوان ص ١٢٧ .
(٤) انظر البديع في وصف الربيع ص١٠٣ ، الذخيرة ٤/ ١/ ٤٨ ، نفح الطيب ١/ ٥٣١ ، ٤/ ٦٦ ، ٦٧ .
(٥) البديع في وصف الربيع ص١٢٥ ، والبيتان في الديوان ص١٢٥ .
(٦) التشبيهات ص٥١ (الطبعة الثانية) .

وهو وهم أُصلح في الطبعة الثالثة ، وحوّل إلى عبد الملك بن إدريس[1] .

ومن المهم جدّاً التنبيه عليه هو أن رسالته الإخوانية أو مقطوعته الشعرية الوردية قد أرسلها إلى **الوزير أبي مروان عبد الملك بن أحمد بن شهيد (ت٣٩٣ هـ) لا إلى ابنه أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد**[2] **الشاعر الناقد المشهور** (ت ٤٢٦ هـ) يقول أبو الوليد الحميري « وكتب أيضاً أبو مروان إلى الوزير أبي مروان عبد الملك بن شهيد في أخريات أيام الورد بأبيات أنيقة الصفات وهي :

قل للوزير الذي جلّت فضائله فسّرْ لنا شرح معنى سال سائله . . .

وبلغني أن الوزير ابن شهيد جاوبه بأبيات لم تقع إليّ ولا وردت عليّ »[3] .

والأبيات السابقة لم يخرّجها محقق الكتاب .

وقد وردت تلك الأبيات والرد عليها في ترجمة أبي عامر ابن شهيد خطأ ، فقد التبس الأمر على ابن بسام فظن أن الجزيري أرسل هذه الرسالة الشعرية لابن شهيد الابن مع أن الجزيري توفي سنة ٣٩٤ هـ وكان عمر ابن شهيد لا يتجاوز اثني عشر عاماً ، يقول ابن بسام :

« وكتب الوزير أبو مروان ابن الجزيري إلى الوزير أبي عامر ابن شهيد :

---

(١) المصدر نفسه ص٥٦ (الطبعة الثالثة).

(٢) «ابن شهيد الأَشْجَعي (٣٨٢ ـ ٤٢٦ هـ = ٩٩٢ ـ ١٠٣٥ م)
أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد من بني الوضاح من أشجع من قيس عيلان أبو عامر الأشجعي: وزير من كبار الأندلسيين أدباً وعلماً، مولده ووفاته بقرطبة، له شعر جيد، يهزل فيه ويجد في «ديوان ـ ط» جمعه المستشرق شارل بلاّ. وتصانيفه بديعة منها: «كشف الدك وإيضاح الشك» و«حانوت عطّار» و«التوابع والزوابع ـ ط» قطعة منه مصدرة بدراسة تاريخية لبطرس البستاني، وكانت بينه وبين ابن حزم مكاتبات ومداعبات» الأعلام ١/ ١٦٣ .

(٣) البديع في وصف الربيع ص١٢٥ ـ ١٢٦ ، والأبيات في الديوان ص ١٧٤ـ ١٧٥ .

قل للوزير الذي بانت فضائله ... وقام فينا مقام الغيث نائله
إذ بان فضل مساعيه وهمته ... بيّنْ لنا شرح معنى سال سائله
أواخر الورد إذ تجنيه ملتقطاً ... أزكى وأعطر نشراً أم أوائله
وأي حاليه موجوداً ومفتقداً ... أولى وأجدر أن ترعى رسائله
وقد أتاك لتوديع على عجل ... خضراً مقانعه حمراً غلائله
فامنحه منك قبولاً واقضِ نهمته ... من الوداع فقد زمّت رواحله

فأجابه :

يا سيداً أرجت طيباً شمائله ... وشاكهت شعره حسناً رسائله
وسائلاً ليس عما ليس يجهله ... ولا الذي كُلِّف التفصيل جاهله
الورد عهداً ونشراً صنو عهدك لا ... تنسي أواخره طيباً أوائله
ووصله في كلا الحالين مفترض ... سيّان قاطعه ـ جهلاً ـ وواصله
فالعود يخفق والمزمار يتبعه ... وهاجر الراح قد هاجت بلابله
تخبر بمثل الذي أنت العليم به ... أيامنا والصبا تُعصى عواذله »[1]

وقد أحال محقق الذخيرة على « ديوان ابن شهيد ١٤٦ (عن الذخيرة وحدها) » .

وقد وهم جامعا ديوانه وجلّ من كتب عن ابن شهيد ، وظنوا أن هذا من دلائل نبوغ ابن شهيد وأنه أرسل إلى الوزير الجزيري مقطوعة قبل تمام الثانية عشرة ، ففي ديوان ابن شهيد جمع يعقوب زكي تنسب المقطوعة اللامية لابن شهيد نقلاً عن الذخيرة وحدها ، ويقول في الهامش : « وتاريخ التأليف لا يمكن أن يكون لاحقاً لعام ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) » انظر المقدمة ص١٤ ـ ١٥ »[2] .

وفي المقدمة قال : « ولا بد أن ابن شهيد كان طفلاً معجزاً فإن أقدم قصائده الباقية ـ فيما يبدو ـ قد كتب في تاريخ سابق لشهر شوال عام ٣٩٤ (أغسطس ١٠٠٤) وهي قصيدة قصيرة وجهها إلى الوزير أبي مروان

---

(١) الذخيرة ١/ ١/ ٢١٨ ـ ٢١٩ .
(٢) ديوان ابن شهيد (جمع يعقوب زكي) ص١٩٣ .

عبد الملك بن إدريس الجزيري الذي قتل خنقاً في سجن الزاهرة بأمر من المظفر في التاريخ المذكور ، **وكان عمر ابن شهيد حينئذ اثني عشر عاماً فقط** ، والقصيدة جزء من رسالته له ردّ بها على خطاب وجهه إليه ذلك الوزير . . . »[1] .

والأمر أكثر من ذلك في ديوان ابن شهيد جمع شارل بلاّ إذ يتضخم الوهم في الدراسة المفردة عنه ـ ويغدو حقيقة وإن شكّ فيها ـ ، يقول : « ومما لا شك فيه أنه استمتع بصداقة كبار الموظفين وحمايتهم ، ومنهم الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الذي كان شاعراً شهيراً وناثراً مقدراً ، فبعد أن ضرب بسهم في مؤامرة دبّرت على المظفر سجن في المطبق حيث اختنق سنة ٣٩٤/ ١٠٠٤ ، ولقد روى ابن بسام قطعة له يسأل فيها أبا عامر عن الورد ورائحته :

أواخر الورد إذ تجنيه ملتقطاً أزكى وأعطر نشراً أو أوائله

فيجيب الوزير بأبيات نعدّها ـ إن صحّت نسبتها إليه ـ أقدم ما وصل إلينا من أشعاره : يا سيداً . . . **مما يبرهن على ملكته وصناعته وهو صبي لا يتجاوز الثانية عشرة** »[2] .

وينسب القطعة لابن شهيد في الديوان محيلاً على الذخيرة فقط[3] .

وفي دراسة أكاديمية عن ابن شهيد ذكر د . حازم عبد الله خضر هذه المراسلة الشعرية من دون أن يسترعي انتباهه صغر سن ابن شهيد فأورد ضمن أغراضه : « المراجعات والعتاب : منها ما ساقه أبو عامر مساق المخاطبات والمراجعات مع أصحابه ، **وخاصة صديقه** الوزير أبي مروان الجزيري ، فقد سأله هذا سؤالاً في الشعر : أواخر الورد . . »[4] .

---

(١) المصدر نفسه ص١٤ .
(٢) ابن شهيد الأندلسي ـ حياته وآثاره ص٣١ .
(٣) ديوان ابن شهيد (جمع شارل بلاّ) ص١٢١ .
(٤) أبو عامر ابن شهيد الأندلسي ص٩١ .

وفي كتاب حديث جداً عن ابن شهيد الأندلسي[1] للدكتور الشاذلي بو يحيى يشير المؤلف إلى الجزيري عدة مرات في الحواشي وفي نفسه شيء من الشك في تلك الأبيات ، يقول عن ابن شهيد : « وتفتقت قريحته منذ الشباب الباكر على نظم الشعروكتابة النثر ، وربما كانت له مع أدباء ذلك العصر مساجلات شعرية ونثرية في سن مبكرة أيضاً »[2] وفي الحاشية يقول : « يرى شارل بلاّ أن الأبيات الستة الواردة في شذا الورد (الديوان عدد 51) قد قالها ابن شهيد رداً على سؤال أتاه شعراً وعمره دون الثانية عشرة (في تقديمه لهذه الأبيات ص121 من الديوان) وتبعه في ذلك بطرس البستاني (ص٧ من مقدمة الديوان) وفي هذه الرواية أن صاحب السؤال هو الوزير أبو مروان ابن الجزيري ، فتكون هذه المساجلة الشعرية قد دارت بين وزير وطفل لم يبلغ الثانية عشرة من عمره! ، يروي ابن بسام هذا السؤال والجواب دون الإشارة إلى سن ابن شهيد (الذخيرة 218/1/1-219) ، يقول ابن بسام « وكتب الوزير أبو مروان بن الجزيري إلى الوزير أبي عامر ابن شهيد : قل للوزير . . . (الأبيات) فأجابه : يا سيداً . . . (الأبيات) فنلاحظ أن ابن الجزيري يخاطب ابن شهيد **بلقب الوزير** »[3] .

وفي الفصل الأول المعنون بـ : شعر ابن شهيد يقول د . الشاذلي : « فطر ابن شهيد على حب الشعر يقرؤه وينظمه منذ نعومة أظفاره ، ويساجل فيه أعداءه ويهادي به أحباءه »[4] .

وفي الحاشية يقول : « يرى الأستاذ ش . بلاّ . Ch. Pellat أن الوزير أبا مروان الجزيري الذي كتب أبياتاً إلى ابن شهيد يسأله فيها عن رائحة الورد ، وأجابه عنها أبو عامر شعراً أيضاً هو الذي مات مختنقاً سنة ٣٩٤/ ١٠٠٤ ،

---

(١) نشر عام ١٩٩٣ في تونس.
(٢) ابن شهيد الأندلسي ص٢٦.
(٣) المرجع نفسه ص٢٦ ـ ٢٧ (الحاشية).
(٤) المرجع نفسه ص٣٩.

وا . ش ـ لم يتجاوز إذّاك الثانية عشرة من عمره »[1] .

وفي المرة الثالثة يتلاشى هذا الشك ، وتغدو الأبيات شاهداً على الرسائل الشعرية ، يقول « فجاء ديوانه زاخراً بالإخوانيات وأشعار الصداقة والمودة والتعلق بشتى أنواعها بالإضافة إلى تبادل الرسائل شعراً »[2] ، وفي الحاشية يقول : « مثال ذلك القصيدة عدد 51 من الديوان (وفي الذخيرة 218/1/1-219) حيث جاء في مقدمتها : كتب الوزير أبو مروان ابن الجزيري إلى أبي عامر رسالة يسأله :

أواخـــر الـــورد إذ تجنيـــه ملتقطـــاً أزكـــى وأعطـــر نشـــراً أم أوائلـــه

فأجابه : أيا سيداً . . . الأبيات من القصيدة المشار إليها »[3] .

بذلك قوضت كل تلك الافتراضات من أساسها ، وبطلت كل الأحكام المبنية عليها ببطلان الدليل بنفي نسبة تلك الأبيات لابن شهيد الابن ، ومن هنا يتراءى لنا أهمية التقصي في عملية جمع المعلومات والشواهد ، وعدم الاكتفاء برواية واحدة إن توافر غيرها ، وتمحيص الأخبار ونقدها ، ولعلنا بتصحيحنا نسبة تلك الأبيات وردها إلى صاحبها الحقيقي ـ قد نبهنا على خطأ جسيم جرّ إلى أخطاء وأوهام جسام .

أغراض شعره المتبقي :

يتوزع شعر الجزيري الذي أفلت من قبضة الضياع بين أغراض شعرية متنوعة ذاتية وغيرية أشار إليها بعض الدارسين المحدثين إشارات يسيرة ، يقول د . سزكين « وصل إلينا فضلاً عن شعره في المديح بعض القصائد في وصف الطبيعة »[4] ، ويقول د . فروخ مجملاً : « وفنونه : المدح والعتاب والوصف

---

(١) المرجع نفسه ص٣٩ (الحاشية).
(٢) المرجع نفسه ص١٠٧ .
(٣) المرجع نفسه ص١٠٧ (الحاشية).
(٤) تاريخ التراث العربي ٥/ ٧٢ .

والحكمة وأكثر شعره في المنصور بن أبي عامر مديحاً أو في المناسبات »[1] .

يحتل شعر السجن الشطر الأهم من شعره الذاتي ومن شعره قاطبة ، وقد بقي لنا منه مقطوعتان وقصيدته الرائية المطولة[2] التي تشتمل على أغراض عدة من وصف ذاته وأسرته ووصف السجن والرسالة التعليمية الحكمية والاعتذار ، وأما المقطوعتان فأولاهما الداليّة[3] وقد قالها ضمن سجن طرطوشة ، وثانيتهما بعد خروجه[4] من سجن الزاهرة .

والغرض الذاتي الثاني هو **الخمريات** ، وبقي لنا مقطوعة وحيدة[5] .

والغرض الثالث هو **الوصف وصف الطبيعة والأزهار خاصة** ، وبقي لنا رسالة شعرية إخوانية موضوعها الورود[6] ، ومقطوعتان مفردتان للورد[7] والسوسن ، ومن الأخيرة :

وملسَّنِ الطاقات أبيض ناصع ... يُزهى بأصفر من جناه فاقع
أعداد زهرته إذا حصّلتها ... ست سوى عدد الرقيب السابع
سكنت قرارة حجره كلفاً بها ... كالأم تكلف بالصغير الراضع
أهدى الصبابة والهوى بنسيمه ... وبديع منظره الأنيق الرائع
سمّوه بالسوسان ظلماً واسمه ... في ما خلا ساسان غير مدافع
لما استذاع بفارس كلفت به ... أملاكه فدعته باسم شائع[8]

ويمتزج وصف الأزاهير والطبيعة عامة بالغرض الغيري الأول والأهم وهو **المديح** ، إذ يبتكر نوعاً جديداً من المديح على ألسنة الأزاهير من أسماء كرائم

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٤/ ٣٢٤.
(٢) انظر الديوان ص ١٢٩ ـ ١٦٥ .
(٣) انظر الديوان ص ١٢٤ .
(٤) انظر الديوان ص ١٧٨ .
(٥) انظر الديوان ص ١٧٩ .
(٦) انظر الديوان ص ١٧٤ ـ١٧٥ .
(٧) انظر الديوان ص ١٢٥ .
(٨) الديوان ص١٦٧ .

الحاجب المنصور ، وهو أسلوب جديد تفرد به الجزيري في عصره ، ولدينا ثلاث مقطوعات[1] في هذا المزيج الرائع يقول في إحداها :

شهدت لنوّار البنفسج ألسن ... من لونه الأحوى ومن إيناعه
بمشابه الشعر الأثيث أعاره ... قمر الجبين الصلت نور شعاعه
ولربما جفّ النجيع من الطُّلى ... بصوارم المنصور يوم قراعه
فحكاه غير مخالف في لونه ... لا في روائحه وطيب طباعه
ملك جهلنا قبله سبل العلا ... حتى وضحن بنهجه وشراعه
أما نداه فهو صنو للحيا ... في صوبه لم أعنِ في إقلاعه
في سيفه قصر لطول نجاده ... وكمال ساعده وفسحة باعه[2]

ولقد امتاز الجزيري ـ كما ذكرنا ـ بأسلوب الشعر البديهي ، وفيه يسخّر حوادث الطبيعة لخدمة غرض المديح كالأبيات التي علل فيها ظهور القمر واختفاءه خجلاً من ممدوحه[3] .

أو يكون المديح معتمداً في صوره على الطبيعة كالأبيات البديهية التي رد فيها على صاعد[4] .

والغرض الغيري الثاني هو **الشعر الإعلامي** ، إذ يطلب الحاجب المنصور منه إنشاء شعر في موضوع ما ـ كما يطلب منه ذلك نثراً ـ من مثل الأبيات التي أمره أن يرد بها على الحاجب المصحفي في سجنه[5] .

أو يسوّغ فعلاً قام به حاجبه من مثل المنشأة الباهظة التكاليف التي أنشأها الحاجب بمناسبة ختان ابنه عبد الرحمن شنجول ، وكان عام قحط فارتفعت الأسعار وانتشر الغلاء حتى ترحّل الناس ، فصادف يوم التدشين ظهور سحابة

---

(١) انظر الديوان ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .
(٢) الديوان ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .
(٣) انظر الديوان ص ١٢٣ .
(٤) انظر الديوان ص ١٧٢ .
(٥) انظر الديوان ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

وهَطْل المطر ، فاستغل الجزيري هذا الموقف وقال بديهة مادحاً المنصور واصفاً المنشأة العمرانية والبركة :

وتـوسطتهـا لجـة فـي قعـرهـا ... بنت السلاحف ما تزال تنقنق
تنساب من فكي هزبر إن يكن ... ثبـت الجنـان فـإن فـاهُ أخـرق
صاغوه من ندّ وخلّق صفحتي ... هاديه محض الدر فهو مطوّق
لليـاسميـن تطلّـع فـي عـرشـه ... مثل المليك عراه زهو مطرق
ونضائد من نرجس وبنفسج ... وجنـيّ خيـري وورد يعبـق
ترنو بسجو عيونها وتكاد من ... طـرب إليـك بـلا لسـان تنطـق
وعلى يمينك سوسنات أطلعت ... زهر الربيع فهن حسناً تشرق
فكأنما هي في اختلاف رقومها ... رايات نصرك يوم بأسك تخفق
في مجلس جمع السرور لأهله ... ملـك إذا جمعـت قنـاه يفـرق
حازت بدولته المغارب عزّة ... فغدا ليحسدها عليه المشرق[1]

مستوى شعره :

عاش أديبنا الكاتب الشاعر في القرن الرابع الهجري ، وقد وسمنا هذا القرن بأنه **المرحلة الأندلسية الأولى** من تطور الشعر الأندلسي[2] ، وهذه المرحلة من أكثر المراحل الشعرية تنوعاً في الأندلس ، إذ اجتمعت فيها طريقة العرب القدامى التي دخلت مع الفاتحين العرب إلى الأندلس ، وطريقة المحدثين التي وصلت إليهم بوساطة القنوات الثقافية ، وطريقة الشعر المحافظ الجديد التي مزجت بين سابقتيها ، وأهم من ذلك كله طريقة الأندلسيين مزجت الطرائق السابقة جميعها ، وتأثرت بالبيئة الأندلسية الطبيعية والاجتماعية الجديدة وتفاعلت معها ، وكوّنت شخصيتها الشعرية المميزة ولونها الزاهي إذ اصطبغت بصبغة أندلسية مميزة من الرقة والتأنق واكتست حلة ساحرة من الخيال الذي طالما رفع قدره الشعراء الأندلسيون وتشبث به النقاد الأندلسيون .

---

(١) الديوان ص ١٧٠ ـ ١٧١ .
(٢) راجع كتابنا : الشعر العربي الأندلسي بين المشرقية والأندلسية ص١٦٣ ـ ١٧٩ .

وقد ذكرنا أن بعض الشعراء قد تتوافر لديه الطرائق الشعرية بعضها أو كلها **كابن شخيص الأندلسي**[1] لكون ظروف حياته تتطلبها ، ونضيف هنا **الشاعر الجزيري** إذ يركب متن هذه الأساليب جميعها ، فيقول على **الأسلوب القديم** :

الآن يا جاهلاً زلّت بك القدم تبغي التكرم لما فاتك الكرم
ندمت إذ لم تفز منا بطائلة وقلما ينفع الإذعان والندم
نفسي إذا جمحت ليست براجعة ولو تشفع فيك العرب والعجم[2]

فالأبيات كما هو واضح ذات أسلوب مشرقي بحماستها ومتانتها وبألفاظها ومعانيها ، وتراكيبها الجاهزة « زلّت بك القدم » ، والاعتماد على التراث ، وقلة إبداع الصور الفنية الجديدة[3]

ويقول على **الأسلوب المحدث** :

انظر إلى الكأسين كاسِ المها والراح في راحة ساقيها
تنظرْ إلى نار سنا نورها يحملها والماء يحويها
كأنها نار الهوى في الحشا يلهبها الدمع ويذكيها
صديقة النفس ولكنها تصرعها صرع أعاديها
إذا دنا الإبريق من كاسها لصبّها قلت : يناجيها
يودعها الأسرار شرّابها وشأنها الغدر فتفشيها[4]

فالأبيات تبتعد عن الصور الجاهزة والمصادر الثقافية التراثية والبدوية ،

---

(١) محمد بن مطرّف بن شخيص القرطبي، أبو عبد الله: شاعر مقدم، من أسرة رفيعة، عاش القسم الأكبر من حياته في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، كان قريباً من الخلفاء الأمويين والحجّاب العامريين ولاسيما الحكم المستنصر والمظفر بن أبي عامر يمدحهم ويهنئهم ويناديمهم، أما حياته الخاصة فكانت تميل إلى الهزل. توفي قبيل الأربعمئة. **وقد جمعنا ما بقي من شعره وطبع في دمشق ـ دار شراع ـ دار ابن القيّم ـ عام ١٩٩٢ م**، وانظر فيه مصادر ترجمته.

(٢) الديوان ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(٣) وانظر كذلك الديوان ص ١٢٤ .

(٤) الديوان ص ١٧٩ .

وتميل كل الميل إلى السهولة في اللفظ والرقة في المعنى ، والعذوبة في الأسلوب والطلاوة في الموسيقى[1] .

بيد أن أغلب شعره الباقي يسير على النهج **المحافظ الجديد** لأنه مناسب لجواء المديح وما شابهه ، تكوّن هذا المذهب من عناصر قديمة نهجاً ولغة وموسيقى ، وعناصر محدثة معنى وصوراً وزركشة وتزييناً[2] ، وفيه تتبدى شخصيته بوضوح وتتجلى مقدرته الخيالية وطول نفسه ، وتعانق أبياته وتسلسلها ولاسيما في قصيدته الرائية المطولة :

يـا قـرة العينيـن إنـي كلمـا ... رمت السلوّ أباه شوقي المعتري
وطـوارق الفكـر التـي عـوّضننـي ... من صحتي حال السقيم المحضر
بـرح الخفـاء فمـا لنفسـي حيلـة ... في الصبر عنك ولو دنا لم أصبر
يلتـاح مـن تلقـاء أفقـك لـي سنـاً ... وأريـح مـن ذكـراك ريـح العنبـر
وإن استحـالـت عنـدهـا نفسـي دمـاً ... تهمي به عيني فيخضب محجري
ويشـي بـوجـدي أن أرى لـك رقعـة ... لبسـت بخـط بـرد وشـي عبقـري
ويمـر حبـل صبـابتـي إن بنتـم ... وطـوى سـروركـم مـرور الأعصـر
وإذا دنـا فطـر أو أضحـى هـاجنـي ... فبغلتـي أضحـي ودمعـي مفطـري
حيـران أذهـل عـن إجـابـة مـن دعـا ... باسمي وأوحش في الجميع الحُضّر
خـرس اللسـان كـأنمـا مستنطقـي ... مستنطـق طـلـلاً بـربـع مقفـر
مـا كنـت ذا عـذر يبيـن لعـاذري ... لو لم يسمني الشوق سيما المعذر
أشكـو إلـى الـرحمـن فـرقـة شملنـا ... حقبـاً ثـلاثـاً قـد وصلـن بـأشهـر
يا ليت شعري هل لشعب وصالنا ... مـن شـاعـب وليـومـه مـن مبشـر
بل ليت شعري هل تلبّى دعوتي ... بـإجـابـة فـي مجلـس أو محضـر
أو هـل أقلّـب نـاظـريْ فـأراك فـي ... قـربـي تـوقّـدُ كـالشهـاب الأزهـر
أو هـل ألـذذ مسمعـي بتـلاوة ... من فيك تفصح عن لقيط الجوهر

---

(١) وانظر كذلك الديوان ص ١٢٣ ، ١٧٢ ، ١٧٨ .

(٢) انظر الشعر العربي الأندلسي بين المشرقية والأندلسية ص١٧٢ .

أو هلي أجلّي خاطري بخواطر ... لك تقتضي وهج السراج النيّر
أو هل أروّح عن فؤادي ساعة ... بمشمك العذب المشم الأذفر
عجباً لقلبي يوم راعتنا النوى ... ودنا وداعك كيف لم يتفطر[1]

فأول ما يصادف قارىء هذه الأبيات من العناصر القديمة : جزالة الألفاظ وفصاحتها ، واتساع التراكيب وامتدادها حتى ليشغل المعنى الواحد مساحة البيت الشعري غالباً ، وفخامة الموسيقى إذ تعزف لحناً حزيناً كامل الأنغام ، وفي قبالة ذلك من العناصر الجديدة التشخيص ومصادر الطبيعة اللامعة والعطرة « ريح العنبر ـ برد وشي عبقري ـ الشهاب الأزهر ـ لقيط الجوهر ـ السراج النيّر ـ العذب المشم الأذفر » .

أما **الأندلسية** في شعره المتبقي **فشاحبة** ، إذ لم يكن الإبداع في الخيال والاختراع في الصور المطلب الأساسي في بنية شعره ، وإن اتسم بعضه برقة عاطفية ولفظية ومعنوية ، وكذلك اتسع لديه الوصف ولاسيما وصف الطبيعة والأزهار[2] ، بيد أن الإبداع والاختراع لديه كانا في أسلوب المديح على ألسنة الأزاهير ؛ هذا الأسلوب الذي يكاد يتفرد به ، وهذا التشخيص للأزهار كان نقلة كبيرة في شعر الزهريات خاصة والطبيعة عامة ، إذاً فأندلسيته تتجلى في خارج الشعر لا في داخله ، يقول الجزيري :

حدق الحسان تقر لي وتغار ... وتضل في صفتي النهى وتحار
طلعت على قضبي عيون كمائمي ... مثل العيون تحفها الأشفار
وأخصّ شيء بي إذا شبّهتني ... درر تنطق سلكها دينار
أهدت له قضب الزمرّد ساقه ... وحباه أنفس عطره العطّار
أنا نرجس حقاً بهرت عقولهم ... ببديع تركيبي فقيل بهار
إني لمن زمن الربيع تربني ... قطع الرياض وتلقح الأمطار
فأكون عطراً للأنوف ومنظراً ... بهجاً تهافت نحوه الأبصار

---

(١) الديوان ص ١٣٨ ـ ١٤١ .
(٢) انظر الديوان ص ١٢٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٤ .

وتحية بين الندام تحث لي نخب الكؤوس وتنطق الأوتار

وأقل جود العامري محمد ألف حكت حدقي وتلك نضار

عشر تعد من المئين لأنمل عشر يصرّفها وهنّ بحار[1]

يلفّ التشخيص هذه الأبيات من أولها إلى آخرها فهو لا يصف الزهرة أو ينقل عنها بأنها تقول بل يمنحها القدرة على الكلام لتصف نفسها مزهوّة ، وتمدح الحاجب المنصور إذ إن فضله عمّ الجميع ، ويبدو فيها جلياً التجديد والصور الجديدة كالعيون التي تحفها الأشفار التي استفاد منها ابن خَفاجة[2] فيما بعد ، والدرر حول الدينار ، وكذلك استغلال اللفظ في صنع الصورة فهو يفسّر تسمية النرجس بالبهار بأنه بهر العقول فسمي بذلك ، وكذلك وصف النرجس بأنه ربيب الرياض والأمطار ، وأخيراً التشبيه المقلوب : الدنانير تشبه حدق النرجس وكل ذلك من مصادر الطبيعة الباسمة والجواهر اللامعة ومجالس الأنس العاطرة .

أما **إحساسه بالأندلسية** ، فيتبدى في أمرين ؛ أولهما : ردّه على صاعد البغدادي بلباقة و« دبلوماسية » جعلت الحاجب المنصور يطرب لأبياته ويقول له : « لله درّك يا أبا مروان **قسناك بأهل العراق ففضلتهم** ، فبمن تقاس بعد؟ »[3] .

وثانيهما في مدحه للحاجب المنصور إذ يقول :

---

(١) الديوان ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٢) «ابن خفاجة (٤٥٠ ـ ٥٣٣ هـ = ١٠٥٨ ـ ١١٣٨ م)

إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري الأندلسي، شاعر غزل من الكتاب البلغاء غلب على شعره وصف الرياض ومناظر الطبيعة وهو من أهل جزيرة شقر Alcira من أعمال بلنسية في شرقي الأندلس، لم يتعرض لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم على الأدب وأهله، له «ديوان شعر ـ ط». الأعلام ١/ ٥٧ وانظر ديوانه ص٣٥٦.

(٣) الذخيرة ٤/ ١/ ٣٦، المغرب ١/ ٣٢٢، نفح الطيب ٣/ ٩٥ .

حـازت بـدولتـه المغـارب عـزة فغـدا ليحسـدهـا عليـه المشـرق[1]

وختاماً ، إذا كان لا يمكن الحكم على شعره بشكل قاطع إذ لم يبق منه إلا القليل ، فإنه يمكن القول بأن شعره المتبقي يشي بأن شعره في مستوى رفيع ، وبأنه كان من **فحول شعراء القرن الرابع الهجري في الأندلس** .

* * *

القصيدة الرائيّة

ماهيتها :

هي قصيدة مطولة **عدة أبياتها تسعة عشر ومئتا بيت** ، أرسلها أبو مروان الجزيري من معتقله في قلعة طرطوشة المنيعة إلى أسرته فرداً فرداً ، يبث فيها أشواقه إليهم ويصف أحزانه عليهم ، ويقدم لهم خلاصة من التعاليم الدينية والآداب الإسلامية التي يتوجب الاعتقاد بها ، والتخلق بها ، وفي أثنائها يعتذر للحاجب المنصور ، ويتنصل من ذنبه ، وفي ختامها يبتهل إلى الله تعالى ليكشف ضره ، ويزيل كربته ، وليوقد جذوة العطف والرحمة في قلب المنصور ليعفو عنه ، ويعيده إلى أسرته وإلى ما كان عليه ، **ومن أسير أبياتها وأشهرها** قوله في العلم :

واعلـم بـأن العلـم أرفـع رتبـة وأجـلّ مكتسـب وأسنـى مفخـر
فـاسلـك سبيـل المقتنيـن لـه تسـد إن السيـادة تقتنـى بـالـدفتـر
والعـالـم المـدعـو حبـراً إنمـا سمّـاه بـاسـم الحبر حمـل المحبر
تسمو إلى ذي العلم أبصار الورى وتغض عن ذي الجهل لا بل تزدري
وبضمّـر الأقـلام يبلـغ أهلهـا مـا ليـس يبلـغ بـالجيـاد الضمّـر
والعلـم ليـس بنـافـع أربـابـه مـا لـم يفـد عمـلاً وحسـن تبصّـر
فاعمل بعلمك توف نفسك وزنها لا تـرض بـالتضييـع وزن المخسـر

---

(١) الديوان ص ١٧١ .

سيانِ عندي علم من لم يستفد عملاً به ، وصلاة من لم يطهر[1]

ومن الطريف أنه في صفحة عنوان النسخة بالمخطوطة الوحيدة للقصيدة الرائية تعريف وجيز بها ، وبيتان يترجمان فحوى القصيدة : « جزء فيه قصيدة أبي مروان بن الجزيري ـ رحمه الله في الآداب والسنة كتب بها إلى بنيه ، وترجمها بهذين البيتين :

كتاب قصي الدار منقطع الشمل يحن إلى أوطانه وإلى الأهل
تضمّن آداب الديانة كلها ودلّ على سبل الهداية والفضل »

وكذلك الأمر في مقدمة القصيدة « فكتب إلى بنيه بهذه القصيدة متحزناً عليهم ومتشوقاً إليهم ، يوصيهم فيها ، ويعلمهم بها » .

مدحها :

يقول الحميدي : « ومن مستحسن مطولاته : قصيدة له في الآداب والسنة كتب بها إلى بنيه ، **لا أعلم لأحد مثلها في معناها** »[2] .

كما وصف ابن خاقان تصوير الجزيري لمعتقله بطرطوشة في قصيدته هذه بأنه « من بديع ما قاله »[3] .

معارضتها :

لشهرة قصيدة الجزيري وروعتها ، عارضها مروان بن عبد الله بن محمد[4]

---

(١) الديوان ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .
(٢) جذوة المقتبس ص٢٨٠ .
(٣) مطمح الأنفس ص١٧٩ .
(٤) مروان بن عبد الله بن مروان بن عبد العزيز نحو ٥٠٤ ـ ٥٧٨هـ) = (نحو ١١١٠ ـ ١١٨٢م)
أبو عبد الملك قاضي بلنسية ورئيسها، تأمّر به عند انقراض الدولة اللمتونية وبويع له في سنة ٥٤٠ وأقام على ذلك يسيراً ثم خلع وطرد من بلنسية فظفر به اللمتونيون واعتقلوه ببعض معاقل ميورقة نحواً من اثنتي عشرة سنة، ثم تخلص وسار إلى مراكش=

يقول ابن الأبّار عنه إنه : « في سجنه ذلك قال قصيدة يعارض بها أبا مروان الجزيري ، أولها :

يا نفس دونك فاجزعي أو فاصبري طلع الزمان بوجهه المتنمّر »[1]

شرحها :

ذكر ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة أن أبا الأصبغ بن كراديس[2] « له شرح جيد في قصيدة أبي مروان الجزيري في السنة والحكم والوصايا والأمثال »[3] .

شهرتها ورواتها :

هذه القصيدة هي إحدى القصائد التي كان العلماء الأندلسيون يحرصون على روايتها واستجازتها في حياة المؤلف وبعد وَفاته ، فقد ذكر الحميدي في ترجمة الرباحي أنه روى عن الجزيري : « يوسف بن سليمان الرَّباحي ، أبو عمر ، روى عن أبي مروان عبد الملك بن إدريس الكاتب »[4] ومع أن العبارة قاصرة والجملة ناقصة فإني أعتقد أنه روى عنه قصيدته الرائية إذ لم يعرف عن الجزيري أنه من الذين يتصدرون للرواية والإخبار .

ومن المعروف ـ أيضاً ـ أن ابنه الأصغر عبد العزيز كان أحد رواة هذه

= ـ في قصة طويلة ـ وحدّث هناك فأخذ عنه جلّة الناس وتوفي في مراكش. التكملة ٢/ ٦٩٦، الحلة السيراء ٢/ ٢١٨ ـ ٢٢٦، المغرب ٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(١) الحلة السيراء ٢/ ٢٢٥.

(٢) «عيسى بن عبد الرحمن بن عيسى بن أصبغ بن هشام: لاردي أبو الأصبغ بن كراديس، روى عن أبي عمر أحمد بن حسين، وأبي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن هشام، وكان أديباً حافظاً وله «شرح جيد في قصيدة أبي مروان الجزيري في السنة والحكم والوصايا والأمثال» وكان بعد الأربعين وأربعمئة». الذيل والتكملة ٥/ ٢/ ٥٠٠.

(٣) الذيل والتكملة ٥/ ٢/ ٥٠٠.

(٤) جذوة المقتبس ص٣٦٧.

القصيدة ، وقد رواها عنه أبو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان العمري أو القرشي ، كما كان الحميدي (ت ٤٨٨ هـ) أحد رواة هذه القصيدة ، وقد رواها بسند متصل إلى صاحبها في جذوته : « أنشدناها أبو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان القرشي عن الكاتب أبي أحمد عبد العزيز بن عبد الملك بن إدريس عن أبيه »[١] .

ولشهرتها وأهميتها نقل الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) في كتابه تقييد العلم عن الحميدي عندما كان في المشرق شيئاً منها ، يقول الحميدي : « وقد كتب عني هذه القطعة الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الحافظ ، وأخرجها في بعض تصانيفه في العلم وفضله »[٢] .

ويختم ابن عبد البر الأندلسي (ت٤٦٣ هـ) كتابه جامع بيان العلم بأبيات الجزيري : « وأنشدت لعبد الملك بن إدريس الوزير من قصيدة له مطوّلة »[٣] .

وازداد اهتمام الناس بهذه القصيدة في القرن السادس وكثر عدد رواتها وفي فهرسة ابن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥ هـ) طرائق عدة لورود هذه القصيدة ، وأسانيد متعددة ، ورواة كثر لها ، يقول ابن خير : « القصيدة الرائية للوزير الكاتب أبي مروان عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري رحمه الله وأولها :

ألوى بعزم تجلّدي وتصبّري نـأي الأحبّـة واعتيـاد تـذكّـري

حدثنا بها الشيخ المحدث أبو الحسن عباد بن سرحان المعافري رحمه الله ، سماعاً عليه لبعضها ومناولة لجملتها ، قال : حدثني بها الشيخ الفقيه أبو عبد الله بن محمد بن العربي المعافري رحمه الله ، قراءة مني عليه ، قال : أخبرني بها الوزير اللغوي أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن القوطية ، وذو الوزارتين صاحب المظالم أبو عمر أحمد بن الحسين بن حي بن عبد الملك بن

---

(١) المصدر نفسه ص٢٨٠ ـ ٢٨١ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٨١ وهي في كتابه تقييد العلم ص١٣٠ .
(٣) جامع بيان العلم ٢/ ٢٥٠ .

حي التجيبي القرطبي ، جميعاً عن قائلها أبي مروان الجزيري رحمه الله .

قال ابن سرحان : قال أبو محمد بن العربي حدثني بها أبو بكر محمد بن القوطية في سنة ٤٤٥ ، وحدثني بها أبو عمر بن حي في سنة ٤٥١ ، وحدثني بها شيخنا القاضي أبو بكر محمد بن العربي رحمه الله عن أبيه رحمه الله عن ذي الوزارتين صاحب المظالم أبي عمر بن حي المذكور عن قائلها أبي مروان الجزيري رحمه الله ، ولم يذكر شيخنا القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله في فهرسته أن أباه رحمه الله قرأها على أبي بكر بن القوطية ، وإنما ذكر أنه أخذها عن أبي عمر بن حي لا غير ، فالله أعلم .

قال القاضي أبو بكر بن العربي شيخنا رحمه الله : وأخبرني بها الشيخ أبو بكر محمد بن طرخان وأبو عامر بن سعدون ، قالا : أنا أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي ، قال : أنشدنا أبو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان القرشي ، عن الكاتب أبي أحمد عبد العزيز بن عبد الملك بن إدريس الجزيري رحمه الله ، عن أبيه قائلها رحمه الله .

وحدثني بها أيضاً الشيخ أبو الحكم عبد الرحمن بن عبد الملك بن غشليان رحمه الله ، إجازة ، عن أبي عبد الله الحميدي المذكور ، إجازة بالسند المتقدم »[1] .

وفي القرن السابع يشير ابن الأبّار (ت ٦٥٨ هـ) إلى شهرتها في كتابه « إعتاب الكتّاب » فيقول : « وكتب من معتقله قصيدته المشهورة في الناس »[2] .

وفي كتابه التكملة لكتاب الصلة يشير إلى بعض رواتها في ترجمته لباقي بن عبد الله بن إسماعيل الأسلمي[3] ، فيذكر أنه « روى عنه أبو عبد الله محمد بن

---

(١) فهرسة ابن خير ص٤١٠ ـ ٤١١ .

(٢) إعتاب الكتّاب ص١٩٤ .

(٣) باقي بن عبد الله بن إسماعيل الأسلمي من أهل أكش، وسكن مرسيّة، يكنى أبا خالد وكناه صاحب قلائد العقيان أبا الحسن . =

عبد الرحمن المكناسي قصيدة أبي مروان الجزيري ، وكان يرويها عن أبي أحمد بن الصفار عن محمد بن أبي مروان عن مروان . وأخبرت بها عن أبي الحجاج بن أيوب عن المكناسي »[1] .

ويذكر ابن سعيد شهرة قصيدة الجزيري : « وله في اعتقاله **القصيدة المشهورة الطويلة** التي يوصي بها ولده »[2] .

وفي القرن الثامن يقول الحميري في الروض المعطار عن الجزيري في سجنه بطرطوشة إنه « قال يصف حاله هناك من **قصيدة طويلة مشهورة** »[3] .

المراجع والمصادر التي ذكرتها :

لم تنل قصيدة الجزيري الرائية ـ ولا الجزيري نفسه ـ حقها أو بعض حقها في العصر الحديث لضياع أصولها المخطوطة ، فاكتفى بعضهم بالإشارة إليها مجرد إشارة فحسب[4] ، أو بإيراد أبيات قليلة منها[5] .

وقد وقف عند قسم من هذه القصيدة د . أحمد مختار البزرة في كتابه الأسر والسجن واهتم بها لكونها إحدى القصائد التي قيلت في السجن ، ولكنه لم يقع عليها كاملة ، وإن كانت عبارته توهم بأن بعض أصحاب التراجم قد أوردوها كاملة ، يقول : « وقد أجمع صاحب المطمح وغيره على أن الشاعر الكاتب عبد الملك بن إدريس الجزيري له شعر كثير في وصف حاله في

= أخذ العربية عن أبي تمام القطيني، وروى عن أبي الحسن الحصري، وأبي أحمد بن الصفار البربشتري، وكان أديباً شاعراً نحوياً، له معرفة بالطب وغير ذلك، وكتب للقاضي أبي أمية بن عصام، وحلّ منه ألطف محل. التكملة ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(١) التكملة ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٢) المغرب ١/ ٣٢٢.

(٣) الروض المعطار ص٣٩١.

(٤) انظر: معجم المؤلفين ٦/ ١٨٠، تاريخ التراث العربي ٥/ ٧٢.

(٥) انظر تاريخ الأدب العربي ٤/ ٣٢٤ ـ اتجاهات الشعر الأندلسي ص٥٧٢ ـ تاريخ الأدب الأندلسي ص١٠٢، فهرس التشبيهات ص٣١٧.

الحبس ، وكان المنصور بن أبي عامر ثم ابنه المظفر من بعده أطالا حبسه حتى مات ، فرأى المؤلفون أن قصيدته الرائية التي وصف فيها معتقله ببرج طرطوشة وهمومه ونصائحه ووصاياه لابنه رأوها مجزئة عن سائر ما نظم في السجن **وأوردها بعضهم بتمامها** ، وقل مثل ذلك فيمن انتخب من غيرها »[1] وأحال على بغية الملتمس للضبي ص٣٦٢ وفهرسة ابن خير ص٤١٠ ، ولم يورد الضبي سوى ثمانية أبيات منها ، ولم يورد ابن خير الإشبيلي أي شيء منها .

ويتضح في موضع آخر من كلامه أن القصيدة لم ترد كاملة في المصادر ، وأن أصحاب التراجم قد انتقوا منها بعض القطوف ، يقول : « وللوزير الأندلسي الشاعر عبد الملك بن إدريس الجزيري محاولة جادة في وصف معتقله بطرطوشة في حصنها المنيع في ذروته المنيفة ، وأورد مؤرخو الأدب بضعة أبيات من هذا الوصف ، وهو ـ على الأرجح ـ القسم الثاني من قصيدة طويلة ذات مقدمة ذاتية ، وتصف الأبيات موقع الحصن ، أما الحبس وأحواله وما يجري فيه فلم يقتطف من وصفه شيء »[2] .

كما وردت أبيات قليلة من القصيدة الرائية في عدد من المصادر الأندلسية ، ولعل ذلك لكون القصيدة نفسها متوافرة مشهورة متداولة بين الناس ، وقد كان ذلك الورود استشهاداً ببعض حكمها ، أو وصفاً للمعقل في طرطوشة ، وهذا بيان بالمصادر التي وردت فيها وعدد أبياتها :

١ ـ جامع بيان العلم ـ ابن عبد البر ٤ أبيات .

٢ ـ جذوة المقتبس ـ الحميدي ٨ أبيات .

٣ ـ مطمح الأنفس ـ ابن خاقان ٧ أبيات .

٤ ـ الذخيرة ـ ابن بسام بيتان .

٥ ـ بغية الملتمس ـ الضبّي ٨أبيات .

---

(١) الأسر والسجن في الشعر العربي ص٤٣١، ٤٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ص٥٠٨ .

٦ ـ الحماسة المغربية ـ الجراوي ١٦ بيتاً .

٧ ـ إعتاب الكتّاب ـ ابن الأبّار ٩ أبيات .

٨ ـ المغرب ـ ابن سعيد بيت واحد .

٩ ـ البيان المغرب ـ المراكشي بيت واحد .

١٠ ـ الروض المعطار ـ الحميري ٦ أبيات .

١١ ـ تاج المفرق ـ خالد البلوي ٣ أبيات (من دون نسبة) .

١٢ ـ نفح الطيب ـ المقّري ٨ أبيات .

أما ورود أبياتها في المصادر المشرقية فهو أقل من المصادر الأندلسية ، وإن كان عدد الأبيات أكثر :

١ ـ يتيمة الدهر ـ الثعالبي ٢٩ بيتاً .

٢ ـ تقييد العلم ـ الخطيب البغدادي ٦ أبيات .

٣ ـ جمهرة الإسلام ـ الشيزري ٢٩ بيتاً .

ومجموع أبيات القصيدة في المصادر الأندلسية والمشرقية بعد حذف المكرر منها لا يتجاوز ٤٩ بيتاً من أصل ٢١٩ بيت ، وهو عدد أبياتها في المخطوطة كما نصّ عليه صاحبها نفسه في قوله :

مئتان زادت تسع عشرة وانتهت ... تحبيرها مثل لكل محبّر
أوترتها والتوتر أفضل سنّة ... ليس المضيع وتره كالموتر[1]

لذلك لولا اكتشاف مخطوطة هذه القصيدة الفريدة لكانت خسارة جمة ، ونحمد الله سبحانه وتعالى على إظهارها بعد طول غياب .

المخطوطة :

لقد فات د . عزة حسن ـ رحمه الله تعالى ـ فهرسة هذه القصيدة اليتيمة في

---

(١) الديوان ص ١٦٣ .

فهرس الشعر من مخطوطات المكتبة الظاهرية الصادر عن مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٤ م ، ولعل ذلك أنها في مجموع قديم يحتوي على عدة رسائل فظن أنها تابعة لإحداها ويقع هذا المجموع في (١١٩) ورقة و« يشتمل على (٩) رسائل في الحديث وغيره ، الرسائل (١ ، ٤ ، ٥ ، ٩) في الحديث ، والرسالتان (٢ ، ٣) في الوعظ والإرشاد ، والرسالة (٦) في الشعر ، والرسالة (٧) في التصوف ، والرسالة (٨) في التاريخ . . .

كتب المجموع بقلم عدد من النسّاخ ، بخطوط مختلفة ، منها السيء الذي تصعب قراءته لإهمال الإعجام فيه ، ومنها الحسن المقروء . لم تذكر أسماء النساخ وإن كان بعضها عرف بخطه كالرسالة السابعة وهي بخط الحافظ المقدسي .

والمجموع مقروء كثيراً ، على رسائله عدد من السماعات أكثرها من القرنين السادس والسابع . تركت بعض الأوراق فارغة كفاصل بين الرسائل ، وتأثر بعضها بالرطوبة والأوساخ .

عليه وقف المدرسة الضيائية بسفح جبل قاسيون بدمشق . حالة المجموع مقبولة وقد انفرطت بعض أجزائه »[1] .

أما رسائل المجموع فهي :

١ـ فوائد ابن مخلد والنجاد وقصيدة ابن أبي داود في السنة .

٢ـ رسالة ابن تيمية إلى إخوانه الصلحاء .

٣ـ أدب النفوس لأبي بكر الآجرّي .

٤ـ المنتخب من مسند عبد الحميد بن حميد .

٥ـ أسنى المقاصد وأعذب الموارد تخريج ابن بلبان .

٦ـ قصيدة أبي مروان بن الجزيري في الآداب والسنة .

---

(١) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ـ المجاميع ١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

٧ـ كرامات الأولياء للخلّال .

٨ـ الحكايات المقتبسة في كرامات مشايخ الأرض المقدسة لضياء الدين المقدسي .

٩ـ فضل يوم التروية وعرفة وأحاديث مجموعة لعلي بن مسعود الموصلي .

وبذلك ظلت هذه القصيدة النادرة في طيّ الكتمان وغمرة الإهمال مدة طويلة بعيدة عن أيدي الباحثين ، ولم يعلم بوجودها أحد من المهتمين بالتراث العربي عامة ، والأندلسي خاصة ، فالمستشرق الألماني كارل بروكلمان لم يذكرها ولم يذكر مؤلفها في تاريخه الكبير تاريخ الأدب العربي ، بل إن المستشرق الكبير د . فؤاد سزكين صاحب السفر العظيم تاريخ التراث العربي لم يعلم بوجودها في ترجمته للجزيري لأنها لم تدرج في فهارس المخطوطات آنذاك ، وكذلك د . إحسان عباس ، وسائر دارسي الأدب الأندلسي المختصين به ؛ فقد فات الأستاذ الدكتور محمد رضوان الداية المتضلع من التراث الأندلسي معرفتها ، ففي تعليقه وتخريجه للأبيات التي انتقاها الجراوي صاحب الحماسة المغربية من قصيدة أبي مروان الجزيري الرائية ، قال : « لم أجد القصيدة تامّة في مصادري »[1] . مع أن الكتاب طبع في عام ١٩٩١ ، وأن القصيدة كانت قد فهرست في « فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ـ المجاميع » الذي وضعه الأستاذ ياسين محمد السواس وطبع عام ١٩٨٣ ، كما كانت فيما استدركه الأستاذ رياض مراد في « المستدرك على فهرس مخطوطات الشعر » في المكتبة الظاهرية الذي صدر عام ١٩٨٦ . ومن الغريب أن الأخير قد ذكر أن القصيدة « تقع في مئة وعشرين بيتاً »[2] . وإن قدم المخطوطة ورداءة خطها وعدم إعجام بعضه وصغر حجمها ، وعدم وجود نسخة ثانية لها جعلها في نأي عن التحقيق والنشر .

---

(١) الحماسة المغربية ص١٢٧٤ الحاشية .

(٢) المستدرك على فهرس مخطوطات الشعر ص٢٢ .

والمخطوطة من محفوظات المكتبة الظاهرية التي انتقلت مع غيرها من المكتبات إلى مكتبة الأسد الوطنية ، تقع ضمن مجموع رقم (١٠٣٩) ولا تزيد أوراقها على ثماني أوراق من الورقة (٦٣ ـ ٧٠) وتحتوي الورقة الواحدة على نحو عشرين بيتاً ، ومسطرتها (١٣,٥ × ١٨ سم) ، أما خطها فقديم صعب القراءة قليل الإعجام ، ويختلف رسم بعض حروفها قليلاً عن رسمنا في الوقت الحاضر ، وفي بدايتها سماعات كثيرة ، وعلى هوامشها بعض التصحيحات ، ولقد عكفت على قراءتها زمناً طويلاً وعدت إليها من وقت إلى آخر حتى استقام لي أغلب أبياتها .

ومن المعلوم أن تحقيق النصوص المخطوطة يجب أن يعتمد على أكثر من نسخة مخطوطة كي يخرج النص أقرب ما يكون إلى ما وضعه صاحبه نفسه إلا أنه قد يتجاوز عن هذا الشرط في المخطوطات العظيمة القيمة ، العديمة النظير ، وهذه المخطوطة ـ التي بين أيديكم ـ فريدة يتيمة لم يكتشف إلى الآن صنو ثان لها ، بل كانت هي ذاتها مفقودة ـ كما أشرنا ـ غائبة في طيّات مجموع قديم وظن بأنها جزء من إحدى رسائله .

والمخطوطة ـ من جهة ثانية ـ نفيسة بالغة القيمة ، لقدمها وتوثيقها فهي ترجع إلى القرن الخامس الهجري ـ وما أقل المخطوطات التي ترجع إلى هذا القرن ، وهي ممهورة بخط العالم الأندلسي الجليل أبي نصر الحميدي[1]

---

(١) «الحافظ الحميدي (٤٢٠ ـ ٤٨٨ هـ = ١٠٢٩ ـ ١٠٩٥ م)

محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحميدي، أبو عبد الله بن أبي نصر: مؤرخ محدث أندلسي من أهل جزيرة ميورقة، أصله من قرطبة، كان ظاهري المذهب، وهو صاحب ابن حزم وتلميذه، رحل إلى مصر ودمشق ومكة (سنة ٤٤٨ هـ) وأقام ببغداد فتوفي فيها، من كتبه: «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه وذوي النباهة والشعر ـ ط» و«الذهب المسبوك في وعظ الملوك ـ خ» و«تسهيل السبيل إلى علم الترسيل ـ خ» و«المتشاكه في أسماء الفواكه» و«نوادر الأطباء» و«الجمع بين الصحيحين ـ خ» في الحديث، و«تفسير غريب ما في الصحيحين ـ خ» و«بلغة المستعجل ـ خ» سمّاه ياقوت «تاريخ =

صاحب المؤلفات الكثيرة ، وهي كذلك مأخوذة عنه في رحلته إلى المشرق ومقابلة عليه ففي نهايتها بخط الحميدي ما نصه :

« سمع جميع هذه القصيدة وترجمتها بقراءتي من كتابي : أبو الوفا أحمد بن محمد بن الحُصين ، وهو ممسك أصله ويعارض به ، وكتب محمد بن أبي نصر بن عبد الله الحميدي ببغداد في شهر رجب من سنة تسع وسبعين وأربعمئة ، والحمد لله عز وجل ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم » .

إذاً ، فهذه النسخة المخطوطة هي لأبي الوفا أحمد بن محمد بن الحصين[1] ، سمعها من الحميدي مباشرة ونسخها بخطه عنه ، وعارضها بكتاب الحميدي ، وهي موثقة بإقرار الحميدي حامل هذه القصيدة التي يعتزّ بها إلى المشرق .

وفي صفحة العنوان يسجل ابن الحصين سماعه الأول عليها : « سماع أحمد بن محمد بن الحصين نفعه الله بالعلم بمنّه » .

وفي مقدمتها ينص على سماعه من الحميدي لفظاً : « بسم الله الرحمن

= الإسلام» و«التذكرة ـ خ» مختارات من مروياته» الأعلام ٦/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .

(١) «ابن الحُصَيْن: أحمد بن محمد بن عبد الله بن المبارك المعروف بابن الحصين، أبو الوفاء الكاتب، سمع الكثير بنفسه من محمد بن محمد بن علي الزينبي، وعاصم بن الحسن بن عاصم، ومحمد بن علي ابن أبي عثمان الدقاق، ونصر بن أحمد بن البطر، وغيرهم. وكتب بخطه كثيراً من الحديث والحكايات والأناشيد، وحدّث باليسير. ومن شعره:

من قال بالدنيا تصح ديانتي ... فلقد أتى بالزور والبهتان
ضدان مفترقان في حاليهما ... دين ودنيا كيف يجتمعان
لم يجعل الرحمن في جوف امرىء ... قلبين، كلا من له قلبان. . .

توفي سنة إحدى عشرة وخمسمئة» الوافي بالوفيات ٨/ ٢٨ ـ ٢٩، وذكر لقبه فقط في وفيات الأعيان ٣/ ٤٤٩ وفوات الوفيات ٤/ ٣٦، والعبر ٥/ ٢ ـ ١٠ ـ ١٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٦ .

الرحيم . ربّ يسر . أنشدني الشيخ الجليل العالم أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي لفظاً » .

وهذه النسخة للقصيدة متصلة السند إلى صاحبها الجزيري فقد ذكر في صفحة العنوان أنها « رواية ولده الكاتب أبي أحمد عبد العزيز بن عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري عنه ، رواية أبي محمد عبد الله بن عثمان العمري[1] الأديب الأندلسي رحمه الله ، عنه ، رواية الشيخ الجليل العالم أبي عبد الله محمد بن أبي نصر بن عبد الله الحميدي عنه » .

وترد سلسلة الإسناد الذين غدوا معروفين لنا من الجهة الثانية في مقدمة القصيدة إذ يقول ابن الحصين : « أنشدني الشيخ الجليل العالم أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي لفظاً قال : أنشدني أبو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان العمري ـ أدبني في العربية بالأندلس ـ رحمه الله ، قال : أنشدني الكاتب أبو أحمد عبد العزيز بن عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري عن الوزير أبيه رحمه الله » .

وفي أعلى صفحة العنوان وأسفلها « وقف عمر بن الحاجب[2] . . . .

---

(١) أحد شيوخ الحميدي وقد ترجم له في جذوته ص٢٦٣ ، وعنه أخذ ترجمته صاحبا البغية ص٣٤٨ والصلة ص٢٧٥ ،

يقول الحميدي : «عبد الله بن عثمان بن مروان العمري البطليوسي، أبو محمد، نحوي فقيه شاعر، قرأت عليه الأدب، مات قريباً من سنة أربعين وأربعمئة، ومما أنشدني لنفسه رحمه الله :

عرفت مكانتي فسببت عرضي ... ولو أني عرفتكمُ سببتُ
ولكن لم أجد لكم سموّاً ... إلى أكرومة فلذا سكتُّ»

الجذوة ص٢٦٣ .

(٢) «ابن الحاجب (٥٩٣ ـ ٦٣٠ هـ = ١١٩٧ ـ ١٢٣٣ م)

عمر بن محمد بن منصور الأميني، أبو حفص، عز الدين المعروف بابن الحاجب : عالم بالحديث، ورحل في طلبه رحلة واسعة . قال ابن قاضي شهبة : عمل «معجم البقاع والبلدان» التي سمع بها، و«معجم شيوخه» وهم ألف ومئة وبضعة وثمانون نفساً . وعَرَّفه ابن العماد الحافظ : ابن الحاجب الرحّال، وقال خرّج لنفسه =

مستقره بالضيائية بجبل قاسيون » .

وبعض الكلمات المتناثرة : « الحافظ » ، « القرطبي » « قدمه بمنه » ، « عدة أبياتها ٢١٨ » مع أنها تبلغ ٢١٩ بيتٍ وكذلك فوق البيتين « لإسماعيل بن عبد الله ابن الأنماطي رفق الله به » وقد سبق أن نفينا نسبة البيتين إليه .

وفي صفحة العنوان كذلك سماع وإجازة من القرن السادس الهجري ؛

الأول بخط عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن يوسف[1] الذي يتكرر اسمه في أول المخطوطة وآخرها غير مرة ، « سمع جميعها عرضاً بفرع للحميدي رحمه الله فأجازني عنه ، وبروايتي عن أبي الحسن محمد بن مرزوق بن عبد الرزاق الزعفراني ، عنه ابنتي أمة الخالق كوكبة ووالدتها كمال بنت عبد الله بن أحمد بن عمر السمرقندي رعاهما الله وصانهما ، وكتب عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف ، شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمسمئة ، ولله الحمد والمنة » .

والإجازة بخط نسخي جميل لمحمد ابن عبد الخالق بن أحمد ـ صاحب السماع السابق ـ من الإمام الشهرزوري[2]: « قرأ جميعها من الفرع الذي بخط

= معجماً في بضعة وستين جزءاً، ومات دون الأربعين، وقال الذهبي: كان جدّه منصور حاجباً لأمين الدولة صاحب بصرى، وقال الحافظ المزّي: شرع في تصنيف «تاريخ» لدمشق مذيلاً على الحافظ أبي القاسم الدمشقي (ابن عساكر) وهو غير ابن الحاجب (عثمان بن عمر) صاحب الشافية والكافية». الأعلام ٥/ ٦٢ .

(١) اليوسفي (٤٦٤ ـ ٥٤٨ هـ = ١٠٧١ ـ ١١٥٣م)

عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف، أبو الفرج اليوسفي البغدادي: محدث حافظ، مفيد بغداد، رحل وسمع بأصفهان والأهواز، وألّف وجمع وحدّث، أثنى عليه المترجمون ووصفوه بأنه كان خيّراً متواضعاً متقناً مكثراً، صاحب حديث وإفادة، جمع لنفسه مشيخة في أربعة عشر جزءاً.

سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٧٩، العبر ٤/ ١٣٠، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣١٣، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٩٣، شذرات الذهب ٤/ ١٤٨ .

(٢) « الشَهْرَزُوري (٤٦٢ ـ ٥٥٠ هـ = ١٠٧٠ ـ ١١٥٦ م)

المبارك بن الحسن بن أحمد الشهرزوري ، أبو الكرم : عالم بالقراءات مجود =

الحميدي رحمه الله على الشيخ الإمام أبي الكرم المبارك بن الحسن بن أحمد بن علي الشهرزوري ، بروايته لها عن الحميدي إجازةً ، محمد بن عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف ، وذلك في ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وخمسمئة » .

وثمة شهادة مهمة على توثيقها في القرن السابع على هامش الورقة الثانية [٦٤ أ] أدلى بها عالم أندلسي رحل إلى المشرق واطلع على هذه النسخة وسجل قراءته عليها ، واتصال سندها إليها وهو الرعيني : « قرأت جميع هذه القصيدة على الشيخ الإمام أبي القاسم الحسين بن هبة الله بن صصري ، بإجازته من أبي الكرم بن الشهرزوري وابن البطّي وعبد الخالق بن يوسف ، قالوا جميعاً : أنبأنا الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي بسنده في أولها ، فسمعها صاحبها أبو الفتح عمر بن محمد بن الحاجب [بن] منصور الأميني .

قاله وكتبه عبيد الله الفقير إليه الغني به : عيسى بن سليمان بن عبد الله بن عبد الملك الرعيني الأندلسي المالقي عفا الله عنه ، وذلك في الثامن عشر من شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وستمئة بجامع دمشق » .

وفي آخر القصيدة سماعات خمسة بعد سماع الحميدي وإجازته لابن الحصين ،

السماع الأول والخامس بخط عبد الخالق بن أحمد اليوسفي ، والثاني والثالث والرابع بخط أبي عبد الله محمد بن المطهر .

السماع الأول : « سمع جميعها والترجمة من لفظي بروايتي إجازة عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي رحمه الله ، وبروايته عن الشيخ أبي الحسن محمد بن مرزوق بن عبد الرزاق بقراءتي من كتابه عن الحميدي هذا : الشيخان الشيخ أبو جعفر أحمد بن ناصر بن أحمد بن الخير بن جعفر ،

= لها . صنّف فيها « المصباح الزاهر في القراءات العشر البواهر ـ خ » رواه من نحو خمسمئة طريق ، وتوفي ببغداد » . الأعلام ٥/ ٢٧٠ .

والفقيه أبو المحاسن يوسف بن المظفر بن الحسين بن عمر الآصف الكرخي في بلده ، ردّ بها على أصلي يوم الخميس سابع جمادى الأولى سنة تسع عشرة وخمسمئة .

وكتب عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف » .

السماع الثاني : « سمع الجزء كله بقراءة الشيخ الأجلّ الإمام الأوحد عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف أدام الله بركته ولا زال عنا ظله ، منه بروايته إجازة عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي رحمه الله وبروايته عن الشيخ أبي الحسن محمد بن مرزوق بن عبد الرزاق بقراءته من كتابه عن الحميدي هذا : الشيخان ؛ الرئيس الأجل أبو المفاخر محمود بن علي بن القاسم بن محمد ، وأبو عبد الله محمد بن علي بن هراجك ، ومحمد بن أبي القاسم الشرابي الصوفي ، وأبو القاسم عبد الغفار بن أحمد بن محمد بن يوسف الحاجب ، وأبو عبد الله محمد بن نجم بن محمد بن عبد الواحد وأبو منصور أحمد بن محمد بن عمر بن يوسف .

ومثبت أساميهم أبو عبد الله محمد بن المطهر بن أحمد بن محمد بن المطهر بن محمد بن حامد .

وصح سماعهم في رباط الصابر في يوم الثلاثاء تاسع عشر من شهر جمادى الأولى من سنة تسع عشرة وخمسمئة وصح لهم ذلك هـ » .

السماع الثالث على حاشية الصفحة : « وسمع مع الجماعة أبو طالب بن محمد بن الحسين بن علي بن الحسن بن كورويه ، وصح سماعه مع الجماعة في التاريخ هـ » .

السماع الرابع على الحاشية أيضاً كُتب معكوساً وقد امّحت بعض كلماته : « وسمع في النوبة الثانية الفقيه أبو الشريف ناصر بن محمد بن ناصر بن علي ، وأبو المناقب سعد بن علي . . . وأبو الحسن بن أبي سعد بن أحمد بن أبي الحسن رحوانشير ، وأبو طالب بن محمد بن الحسين بن . . . . أبو الغنائم عبد . . . . الحاجي .

وكاتب أسامي المذكورين أبو عبد الله محمد بن المطهر بن أحمد بن محمد . . .

السماع الخامس في الورقة الأخيرة : « في الأصل لهذه القصيدة وهو فرع كتبه الحميدي رحمه الله ؛ سماع جماعة منه منهم بقراءة عبد السلام بن عبيد الله بن محمد الكارماني : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد التورخي وونو بن محمد بن الحسين البواني ، وموج بن سرار والمبارك بن الحسين بن علي بن أحمد الحرص الفارسي ولب بن هود بن لب بن سليمان الجذامي الأندلسي السرقسطي ، وأبو المفاخر عطية بن عبد المنعم بن عبد الباقي الأبهوي ، وأبو النجيب عبد الرحمن بن جعفر بن خلف بن وهب الأنصاري ، وأبو الفضل كمال بن ناصر بن نصر الحدادي ، ونصر بن ناصر بن نصر الحدادي المواعي .

نقله عبد الخالق بن أحمد بن يوسف » .

ونختم هذا التقديم بإيراد نماذج من هذه المخطوطة الفريدة :